القبلة الأخيرة

مجموعة قصصية

خديجة بلعباسي

اسـم الكتـاب: القبلة الأخيرة
اسـم المؤلـف: خديجة بلعباسي
الترقيم الـدولي: 978-2-12-345627-8

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع © محفوظة لدار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع المشهرة برقم 24821 بتاريخ 2015/10/1. ومقرها جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.
وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية مكتوبة من الناشر يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

...وكان هذا الفيلسوف المتمكن بحكمته هو "بزرجمهر" استطاع أخير اختراع :" النرد"، وبعد يومين استدعى الشاهان شاه بزرجمهر ليسأله: "أي بزرجمهر أي شيء ذلك الذي وعدت باختراعه ثم إرساله إلى ديب سرم؟" فأجاب بزرجمهر:"أن أعقل وأعلم ملوك العالم في هذه الألف سنة لهو اردشير وإني جاعل رقعة النرد على صفين باسم اردشير". وبعد أن تم ذلك أرسله الملك إلى الهند مرفوقا بالهدايا القيمة. وهناك لم يتواجد بين علماء الهند و دهاتها من يعرف سبيلا إلى حله. وهكذا تنقضي أربعون يوما، الأجل المضروب، يرجع بعدها"بزرجمهر" زعيم القافلة منتصرا و محملا بالهدايا والخراج .

وضعت رقعة النرد على منوال الأرض المقدسة وثلاثين بيدقا مثالا للثلاثين يوما وليلة وخمسة عشر بيضا مثالا للأيام وخمسة عشر سودا مثالا لليالي. وجعل دوران الكعبين مثالا لحركة النجوم ودوران الفلك، ثم أشار بزرجمهر إلى ما ترمز إليه الأعداد الناتجة عن رمي الكعبين،الواحد مثالا لوحدانية الله، وأنه هو الذي أعطى كل خير. الاثنان جعلهما مثالا لعالم المعنى وعالم الحس. الثلاثة جعلها مثالا للنية والقول والعمل. الأربعة جعلها مثالا للعناصر الأربعة: الهواء ،الماء ،النار والتراب التي يتكون الإنسان منها. ومثالا لجهات العالم المشرق والمغرب والشمال والجنوب. الخمسة جعلها مثالا للأنوار التي تأتي من السماء الشمس والقمر والنجم والنار والبرق. الستة جعلها مثالا لخلق المخلوق على الجهات الستة والأيام الستة... وعندما تجمع تلك البيادق بعد دوراتها فإنها تشبه الناس وقد كتب عليهم جميعا أن يتركوا هذه الدنيا. وإذ يعاد صفها من جديد ثم يبتدئ اللعب من الأول فهذا رمز ليوم البعث.

***القصة مستوحاة من مجلة :"دعوة الحق"،مقال حول اختراع لعبتي النرد والشطرنج،العددان 70و71**

الإهداء:

إلى من علمني كيف أحب الحياة أبي،إلى من علمتني أن جمال الحياة يكتمل ببساطتي أمي،إلى من علمتني أسرارحكيم ما قولا أن الحياة أكبر مطبخ لا ندري ماذا سيعد لنا القدرفيه أختي، إلى من علمني أن الحياة حسابات موجبة وسالبة وخارج مضبوط أخي. إلى من علمني كيف أكتب القصة و أهداني أول وردة حمراء.

بيدقة المواسم

لم أكن أبحث عن رجل يعتقلني، ويجعلني أسيرة أفكاره، كنت أبحث عن وطن آمن الملاذ، كنت أحلم أن أجد لي في قربه سكنا ينسيني في كل المساكن التي قد أفكر فيها يوما للهروب من أوجاع الحياة وتقلبات الزمان.

من قال أن الزواج التقليدي سيتحول لحب جارف لافح، بدايته نار و آخره دخان؟ كنت أحسب أن علاقات الحب القبلية دوما تحقق هذا الهيجان بالوجدان وداخل العلاقة، لكن كنت مخطئة. فقد أحببته، ربما لأنه الرجل الأول الذي فتحت عليه عيني. وقع ذلك. صادف لقائي الأول بخالته عندما شددت الرحال من مدينة مكناس لمدينة ميدلت*، لحضور ذلك الموسم السنوي الذي يخص التفاح، حكي لي الكثير عن جمال تلك المدينة المنزوية خلف جبال الأطلس،بثلوجها الكثيفة، وضبابها الذي يجعلها مدينة رغم البساطة ساحرة.خلف ذلك الضباب يمكن أن تلامس بصمة عينيك وأنت تزورها، تلك الوجوه المليئة بالقسمات التي تحكي طيبوبة الأصل وجمال الروح.البساطة سر ذلك، إنهم أناس كرماء بطباعهم ذلك ما وجدناه منهم عندما قررت أمي ذلك العام زيارتها و بالحين نفسه اغتنام الفرصة وزيارة خالتي المقيمة هناك.

مائتا كلومتر كلها طريق قطعتها الحافلة في غضون أربع ساعات، لم يكن الحصول على تذكرة سفر بالأمر السهل خصوصا في تلك الفترة من نهاية الشهر التاسع الذي تشهد فيه عودة التلاميذ للصفوف الدرس و الموظفين لمراكزهم، والسياح لزيارة الموسم السنوي. استغربت لِمَ لَمْ تحفل هاته المدينة التي شهدت أول سكة حديدية بها منذ عقود ولت بسكك تصلها بباق المدن البعيدة وقطارات سريعة تخفف من عزلتها المميتة، وتلك الظروف التي تصعب على الطلبة الالتحاق بالجامعات والمعاهد العليا التي يدرسون بها.

---

* ميدلت ومكناس:مدينتين مغربيتين

مما ينتج عن هاته العزلة استغلال أرباب النقل الوضع برفع أسعار التذكرة من المدينة الأطلسية مثلا للبيضاء بما يعادل السفر من المغرب إلى باريس. أنَّ للفقير أن يحتمل كل هذا الثقل؟ فكرت ماذا لو تحقق حلم تلك الطفلة المصرية التي تحدثت عن حلم تبنيها مشروع تأسيس طريق متحرك لن يحتاج معه الناس للسيارات و لوسائل نقل، يكفي أن نضع خطوتنا الأولى على الطريق لندرك غايتنا، وفل تتحول السيارات للطائرات مدنية لا تطير بعلو الطائرات ذاتها، حسب حاجة الفرد.

ها أنا أخطو خطوتي بعد المحطة ببيت خالتي، صادف ذلك اليوم قدوم عائلة زوجها، كنت متعبة لا أنكر لكن سعدت كثيرا بذلك المساء الجميل في حضرة تجارب نسوة يكبرنني سنا وخبرة في الحياة. كان صعبا علي أن أخرج من قوقعتي لملامسة أفكارهن، فأمي كانت تبعد عن مسامعي أسرار النساء، لكن لا أنكر أنها كانت تربي فيَّ الزوجة والأم دون أن تربي في طفولتي ومراحل مراهقتي،أنوثتي وشبابي. يكفي ألا أكون متذمرة لأسعد من حولي. لست أدري لماذا فكرت في حين ما أني أحتاج لتجربة تجعلني متفردة دون غيري؟ لا أحب أن أكرس التجارب التقليدية، لكن كتب لي شيء يسير من تلك البداية.

-ابنتك جميلة،هل تدرس؟

-حصلت على شهادة البكالوريا ولم تنهِ دراستها بعد.

-أريدها زوجة لابن أختي، معلم بمدينة زايدة*.

-إن كان لهما الخير في بعضهما سيجتمعان.

-سأحدثه عنها لعلهما يكونان من نصيب بعضهما.

كان هذا الحوار مقطعا من حوار طويل دار بين الخالة أمينة ووالدتي، خلصا فيه إلى أن ابن أخيها يأتي كل أحد لزيارة عائلته بميدلت و ستجعلنا نلتقي ببيتها. لا أدري لماذا كنت حينها كليمونة شطرت لنصفين بسكين حاد لم

* زايدة:مدينة مغربية تبعد عن مدينة ميدلت ب 25كم.

أمتلك وقتا لأوقف حامل السكين عن شطر الليمون، كان مستمتعا حد عدم الاهتمام لألمها ولذلك الدم الذي ستنزفه على شفتي المعصرة.لتهبه إكسير الانتعاش.

لم تمضِ الكثير من الأيام ليصل موعد موسم التفاح، تجملت بزينة المدينة، وجعلت خداي تبدوان باحمرار التفاح وشفتي بلون الشهد. طلبت مني أمي ألا أكثر من التبرج والزينة، لكن لم أعر كلامها أدنى اهتمام، لم أكن أعلم أني أتهيأ لما سيغير قدر خطاي، فقد جاءت الخالة أمينة مصطحبة معها أختها والدة السيد العريس، لم أكن مكترثة بالقدر الذي كنت ألح على والدتي بالذهاب لمشاهدة استعراض جميلات الحفل، تمنيت حينها لو كنت مشاركة فأفوز بلقب الملكة. عيناي زرقاوان وجمالي كاف لأسر لجنة التحكيم. وددت ذلك من كل قلبي، لكن السيدة أمينة وأختها المصون فاطمة مصرتان بعدما رأتاني بأبهى حلتي على أخذي ووالدتي لمنزلهم، فقد جاء المعلم من رحلته. كانت والدته تخشى أن يرتبط بأخرى قد تأخذه بعيدا عنها يوما ما. كانت مسألة تزوجيه بمثابة المصادقة على بطاقة إقامة دائمة له بزايدة ثم ميدلت.

تم جري كالخراف الفاقدة الإرادة أمام الراعي وخلف القطيع. لم يكن المنزل بعيدا. لا أنكر أني كامرأة كنت أخشى ألا أكون جميلة بالقدر الذي أقنع رجلا بي. لكن بنفس القدر كنت أتمنى ألا يكون وسيما بالقدر الذي يقنع والدتي به. دون أن أكون مدركة للقادم من الأحداث كنت أثرثر في صمت.

دخلنا لذلك المنزل الجميل والهادئ، جلسنا بغرفة يبدو أنها غرفة لاستقبال الغرباء من الضيوف. غابتا الأختين عنا لفترة يسيرة من الوقت، عادت بعدها الخالة فاطمة وبيديها أكواب عصير وحلوى، تبادلتْ و أمي أطراف الحديث... لوقت طويل جعلني أشعر أن هذا الرجل يحمل نفس أحاسيسي، و لا يريد أن يرتبط بغريبة عنه. لكنه للتو عاد من خارج المنزل، دخل مسلما علينا وكان عابثا غير مهتم قبل أن تلتقي عيوننا، كان خجولا وسيما، جلس في تقابل مع والدتي بعد إلحاح والدته. بعد ثوان معدودات

تفتحت أساريره وعقدة لسانه بل و عقدة لساني أيضا. تحدثنا مطولا بشكل أدهش كل الحاضرين، فطبعينا معا متشابهين، شديدي الخجل و الانطواء. بعد حين انصرفت والدته وخالته ووالدتي وتركانا نتحدث على انفراد.

-خالد 32سنة، معلم، حاصل على الماجستير أدب عربي.

-دنيا،22سنة، بكالوريا آداب عصرية.

-أحب الحياة، السفر، المطالعة.

-أحب قصائد نزار، أغاني أم كلثوم، الطبخ. كتابة اليوميات.

-هل سبق أن أحببت؟

-نفسي فقط

ابتسم، لكنه كان عابثا ولم يفهم كلامي.

-قد أحب نفسك معك.

-سأكون مسرورة.

أصبحنا نلتقي كل مساء، وقد شهدت معه احتفالات الموسم بأكملها. خالد إنسان رائع، أحببته بشكل تقليدي فعلا. وأحبني بكل قواه لكن بشكل أصبح يمس حدود نفسي معي.

الغيرة أصبحت تدغدغ أحاسيسه بداية، وهذا دليل على كونه أحبني، لكن بطريقة ما، جعلني أشعر أني أصبحت تابعة له كحقيبة سفر، أو كدفتر خاص لابد ألا يعرف أحد أسرارها أو أسراره غيره. سألني مرة إن كنت قد عرفت رجلا قبله.

الحقيقة أن أول رجل يمسك يدي ونمضي في طريقنا ملتصقين ببعض كان هو، أول رجل اقتربت روحه من روحي كان خالد، كنت أكذب لأني لم أكن أعلم حدود ما يجب علي قوله مما يجب علي التكتم عليه. لم أحدثه عن مراهقتي المبكرة وكيف كنت معجبة بابن الجيران الذي تجرأ يوما على سجني

بالسطح المشترك و التابع للعمارة التي نقطن بها، حاول أن يريني ما لم أره في حياتي،عضوه الذكري، كان فخورا وهو يريه لي لطول حجمه كما كان يقول، كنت بالبداية خائفة لكن استغربت للاختلاف البيولوجي بين الذكر والأنثى، وما الذي يجعل المجتمع يقيس رجولة الرجل بقضيبه وقدرته على تحقيق الإشباع الجنسي، فهل مثلا هذا التصرف الصبياني الذي أقدم عليه سفيان ابن الجيران تصرف رجال؟ إنه تصرف أنذال، لكنه جعلني أفهم لما كانت أمي تحذرني من بعض الذئاب البشرية. حاول حينها جعلي أتعرف عليه وملامسته لكني بدأت أصرخ فور أن أحسست أن اللعب بدأ يتحول لجد، من حسن حظي أن حارس العمارة كان قريبا من السطح ففتح لي الباب في الوقت الذي اختفى فيه سفيان في السطح المجاور لعمارتنا. لم أخبر أمي بما حدث وكذبت على الحارس قولا أني ذهبت لجمع الغسيل المنشور فأغلق علي الباب ولم تكن معي المفاتيح، فظن أن أحدهم تركه مفتوحا دون إغلاقه مما مكنني للدخول دون مفاتيح، من حسن حظي أن غسيلنا فعلا متواجد بالسطح وإلا وقعت في مطب الصعود للمكان الممنوع. مرة لمحت سفيان برفقة ابنة الجيران زبيدة كان يريها عضلاته ويجعلها تنزع قميصها لتريه عضلاتها، لم تكن تعرف أن الفرق شاسع بين عضلات الجنسين معا، فقد كان غرضه أن يحتال عليها ويجعلها تريه نهديها اللتين بدأتا تلامسان الحياة، فيلمسهما ويطبق عليهما شفتيه، مدعيا أن ذلك سيجعلها ذات عضلات ضخمة أفضل من كل الشبان. حاولت مرة أن أعرف ما تفعله معه في بعض المساءات تحت الظلمة، أخبرتها ألا تثق به ونحن نتحدث بصوت منخفض لكنها قالت لي بأنها تعرف غايته لكن الأمر يعجبها، حتى أصبحت هي من تطلب منه التمادي...فيقارنان بين كل المختلفات بينهما ويتلاحمان ليفهما السر أكثر. خشيت عليها كثيرا حينها حتى أني فكرت بإخبار والدتي كي تتدخل ، لكن كنت أقع رهينة تهديد خوفي عليها أن تقتلها والدتها و إن كانت والدتها دائمة الانشغال بعملها وأسفارها الدائمة. عندما كبرت فهمت أن الأمر ليس خطيئة تكتمي ولا خطيئة استسلامها ولكن الخطيئة ملتصقة باتهام الحديث عن العلاقات الجنسية والتحولات و الاختلافات البيولوجية بالطابوهات.

كانت تعشق الممنوع. وكبرت و لا تزال تتفنن فيه. تزوجت و سفيان عندما بدأ بطنها بالانتفاخ والتصلب، رغم أنهما مراهقين. منع بسبب زواجهما لاحقا من الالتحاق بالمعهد الملكي للشرطة، والكثير من المعاهد الأخرى التي تطالب بالعزاب فقط، كرهها لشهور عديدة لكنه كان يعشق مضاجعتها ولم يسبق أن حدثتني أنه شعر بالملل منها، أحبها أكثر عندما ساعده شقيقها على الهجرة والحصول على عمل محترم بإيطاليا، يقال أن الناطقين باللغة المحلية هناك والإنجليزية يحصلون على عمل جيد، وقد وفق في ذلك، كان يسافر ويغيب طويلا، ثم يأتي للمغرب زائرا، ثم يعود، لم تلتحق به بعد بسبب عدم استيفائها للسن القانوني، تساءلت ماذا تفعل امرأة متعطشة للجنس مثلها في غيابه. هل تخونه؟ أكيد لن تفعل ذلك فقد فتحت عينها عليه وأحبته، وإن كان قد ضاجع الكثيرات قبلها لكنها الوحيدة ربما التي أحب والوحيد الذي عشقت، سألتها مرة عندما جاءت لتزورنا ببيت والدي عن الأمر، فلم تقل شيئا، لكن عندما اقتربت ساعة النوم استضفتها بغرفتي، نامت بجانبي، لكن الحقيقة هي كوننا لم ننم بقينا نتحدث طويلا وكثيرا، توقف الكلام بيننا لمدة قصيرة بدأت تمتد يديها لحدود نهديها ملامسة، لم أعر الأمر اهتماما لكن سرعان ما تحولت للمس نهداي، كنت أعلم أن شكلهما مثير لكونهما ضخمتين وممتلئتين، لكن لم أتصور أن ترغب بملامستهما، لم أفهم الأمر قلت لعلها تريد أن تمازحني، لكن سرعان ما أدخلت يدها أسفل قميصي الشفاف، وحاولت أن تدخل يدها الأخرى ببنطالي، فزمهرت وأوقفتها عن الأمر، قالت لي بصوت مثير:

-ستحبين الأمر.

-لا يمكن أن أحب الأمر، فهو مختل الأصل، ولست شهوانية للحد الذي يجعلني أختلق ما هو منافٍ للعرف البشري.

- لِمَ ؟ لن تفعلي شيئا يمكنك أن تصفيه بالجريمة.

- بلى، هي جريمة.

-ما دليلك؟

-أعرف أن العلاقة الجنسية حدودها بين الزوج وزوجته، يبدو أنك مثلية؟

-لست أدري؟ لكن لا يمكن أن أموت رغبة، وأخنق نفسي.

-يجب أن تصوني نفسك وزوجك.

-لم أفعل الأمر إلا معه ومع نفسي، أردت أن أجرب معك.

-فل تغادري بالغد هذا المنزل. سأترك لك السرير وأنام أرضا.

استغربت أمرها، وتساءلت عن سبب انحرافها المفاجئ، لم نكن صديقتين بالشكل الذي يجعلها تفعل معي أمرا كهذا، لم أكن متعددة العلاقات ولا منحرفة لتتجرأ بهذا الشكل، لكنها ذكرت أني أعجبها. لم أفهم حدود هذا الإعجاب إلا على سريري، و ما علمت يوما أن امرأة يمكن أن تشتهي امرأة، أمقت الأمر. لكن فعلا فكرت فيها، ماذا تفعل في غياب زوجها، هل تكتفي بنفسها؟ وهي المرأة الملتهبة كقطعة قماش سينتهي بها الأمر لإحراق نفسها.

-أتعلمين،ما عدت أحتاج لسفيان، أحب نفسي أكثر. أعلم أنه يعيش حياة أخرى هناك مع إيطالية.

أخرجت من حقيبتها علبة سجائر، حاولت أن تدخن،تفاجأت من تغيرها اللا منتهي، ما علمت أن الحياة والساعة في دورة عقاربها ستغيرها في وقت وجيز جدا فقط لكونها تعيش في شقة منفردة بالبيضاء، بعد ذهاب سفيان لإيطاليا احترفت كل الأشياء التي رغبت بها في وحدتها، هذا ما رغبت به. لتستقل بحياتها وتنهي دراستها، كانت مجدة جدا رغم تطرفها المفرط في عيني فتاة محافظة مثلي. لم أكن الوحيدة المحافظة بل كل بلادي محافظة وهناك خطوط حمراء لا يسمح بتجاوزها، لكن زبيدة كانت تتجاوزها في الخفاء.أصبحت أخشى عليها أكثر منها، لم أرها منذ ذلك الصيف الذي استدار على نفسه عديدا حتى تجاوزنا المراهقة وبلغنا الرشد،التحقت بزوجها لإيطاليا بعد أن أنهت دراستها، لا أدري ماذا وجدت عليه زوجها بعد ما

أكدت لي أنه يعرف غيرها، الظاهر أنها مفرطة في التحرر حد الضياع وحد اكتفائها بنفسها فقط دونه.

كانت أخبارها تصلني حتى لو لم أبحث عنها فوالدتها تقطن قربنا، بنفس العمارة. لعلها لا تدري شيئا عن زبيدة فعلا. وما عدت راغبة بمعرفة شيء عنها.

حتى خالد أنكر العلاقات التي قبلي، لم أكن ملحة لأجعله يعترف بالأشياء التي كان عليها قبلي، فالمهم هو يومنا الحاضر معا. و المهم أنه تاب عن جاهليته فور التقاء عينينا. حاول أن ينهي إجراءات الزواج بشكل مبكر، لم نكن نحتاج لدعوة قبيلة من الأقارب فأنا وأمي وحيدتي بعض بمكناس. لم يكن لأمي أن تبقى معي لوقت يسير وطويل، ففور أن تزوجت واطمأنت علي، عادت أدراجها. سافرت بعدها مع زوجي لفاس*، فكرنا في قضاء أيام هناك قبل أن يبدأ الدخول المدرسي. لكنها سرعان ما مضت وعاد هو للعمل بزايدة وأنا للاستقرار مع عائلته بميدلت. كان بيت حماتي أشبه بمزار لا يفرغ من الضيوف، لا يذهب فوج إلا وقد حل محله آخر، لم أكن أستطيع التحمل والصبر، فقد كنت مدللة والدتي، حتى أنها لم تكن لتجبرني على متابعة الدراسة، كنت أسعى لنيل حريتي حتى من جدران المؤسسات، وصوت الأساتذة الذي يحتكر الزمن طويلا في صمتنا. لكن ما الذي دفع بي لأتقبل الوضع دون أن أعارض، لم يكن لي أن اشتكي لخالد ولا أن أشكو لحماتي تعبي. أصبحت أشعر أن الزمن الذي يمضي غير محسوب من العمر، راكد وممل، كل شيء أفعله في يومي أكرره طوال العام. خالد كان ينشغل بالعمل ولم يكن يمتلك أن يعطيني كل وقته غير المتوفر نهاية الأسبوع، فكل ما كان يحتاجه هوالراحة ومضاجعتي، كنت ممنوعة من الخروج لوحدي، أو السفر لرؤية والدتي، أو حتى الذهاب لحمام الحي،إلا بوجود حماتي. أصبحت لي ملابس خاصة أخرج بها، جلباب فضفاض يستر فتنة نهدي ومؤخرتي، وشال يغطي شعري البني. أصبحت أعاني من حصار خانق بين المطبخ و غرفة

* فاس:مدينة مغربية،اشتهرت بالعلم والعمران.

النوم. لم أحسب أن هذا هو الزواج، وإلا لكنت درست و اشتغلت. عمل المرأة يجعلها نشيطة مشاركة ببناء المجتمع وتطوره. لا أقول أن المرأة التي تطبخ و تنظف وتنتظر زوجها كل مساء لا تساعد في كل ذلك، بل هي أساس كل شيء. فكل الأشياء تبتدئ بالمطبخ وغرفة النوم.

الدوار الشديد، التعب، الاصفرار، الغثيان، مؤشرات حمل، أدركتها حماتي قبل حتى أن نزور الطبيب. زغردت في ذلك الصباح البارد، ولم تهتم لإلحاحي في أن نزور الطبيب قبلا، كانت تحتاج لأن تصبح جدة وتفرح بابنها الوحيد. ربما لم توفق ابنتها في إنجاب الذكر، فالأمر بالنسبة لها يشكل الفارق. تود أن أنجب الذكر. فور أن سمع خالد الأمر، هرول لركوب الحافلة والقدوم إلي، كانت تقاسيم السعادة أمرا لا يمكنه إخفاؤه. ضمني لأول مرة أمام والدته وكانا سعيدين بي.

أسندت رأسي على كتفه عندما أوينا لغرفتنا وسريرنا، اعترف لي بدفء بسعادته الكبيرة بي، وبحبه الشديد لي،في تلك اللحظات كل ذلك الشقاء الذي كنت أشتكي منه في صمتي تبدد، تعب المطبخ وأحيانا تسلطه علي في السرير، كل ذلك تبدد سأصبح أما. كم أنا متشوقة لأن ينتفخ بطني، ولأن أنجب وأخوض تجربة ألم المخاض والولادة، أن نضم وليدنا معا. وننتظر أن يكبر رويدا رويدا، سيجعلني أتحرر من كل الأوجاع. وسيجعلني أطير خارج قوقعتي.

اتفقنا على أن ننام في ذلك الحين كي نستيقظ من أجل موعد الطبيبة. لم أستطع النوم، كان الإحساس يملأني لدرجة لا تصدق. تأخر الصبح في الوصول،أريد أن أعرف عمر الجنين، أعلم أن الطمث انقطع لأشهر يسيرة لكن حسبت الأمر مرتبطا بخلل في الهرمونات لا الحمل ذاته. لم أفطر في الصباح، ارتديت تلك الملابس الفضفاضة التي أجبرت عليها، ثم غادرنا باتجاه العيادة. استقبلتنا الممرضة ثم الطبيبة فور وصولنا. تحدثت معي الطبيبة وقامت بفحوصات إشعاعية ، كشفت لها أمرا كان من الصعب

تصديقه، بل لتتأكد طالبت زوجي بأن يجري لي تحاليل معينة استنزفت منا ساعتين من الصبر والصمت.

-أنا آسفة السيدة اليازيدي ليست حاملا، لابد أن تنقلها فورا للرباط، لتجري عملية استئصال الرحم، السرطان تفشى في رحمها.

-ماذا؟

لم أشعر بالدنيا من حولي، فقدت وعيي، وغادرت العالم طويلا. كيف يمكن لرحمي أن يكون عقيما ظالما، ويحرمني من نعمة الأمومة، استئصال الرحم مرة واحدة. ليته كان حملا كاذبا، ليت عندي مشكلا يحتاج للقليل من الأدوية والصبر. استئصال الرحم؟

عم البيت جو من الحزن و الكآبة، لم أمتلك أن أنتبه لأحد من الجالسين قربي، تبددت معالم الصبح السعيد، لمساء كئيب حزين يرتدي لون الحداد. إنه حدادي وحدي، لابد غدا سأجدني منفية من هذا البيت، من هاته الغرفة ومن هذا السرير. خالد لم يضمني ولم يقترب مني، بقيت وحيدة وكأني حاملة لفيروس خطير معد. لم أفهم كيف جاءت خالتي بالصبح لأخذي معها لبيتي، ومعها رزمة ملابسي. لتو استوعبت أني فقدت كل شيء. سلبوني ابتسامتي، وسعادتي، أخذ خالد عذريتي، ورقص على جسدي أيام فرحي، و الآن أين كلام الحب والغرام؟ تبدد. كل شيء كان نزوة. هل كان عاجزا عن تحمل نفقات علاجي والعملية، هل كان عاجزا على البقاء دون كلمة "بابا" العمر كله؟ التحقت والدتي بميدلت فور اليوم الموالي، أخذتني معها، وسافرنا معا للرباط، هناك بدأت أخضع للعلاج، فقد استبشرت خيرا ببروفيسور أجنبي جاء مع فريق عمله لفترة وجيزة للمغرب، حمدا لله أن صادفت متخصصا بأمراض النساء من وزنه، وإلا لكانوا استأصلوا رحمي، وأصبحت شجرة موتها متسرب لعروقها لقتلها وهي واقفة لا تعرف أهي من

الأحياء أو الأموات إلا ربيعا، عندما يثمر الكل وتبقى وحدها تثقل الأرض بوزنها دون ثمرها، لكن لا يعرف قيمتها إلا من يستظل بها صيفا.

كانت مدة الخضوع للعلاج الكيميائي طويلة جدا، للدرجة التي جعلتني أفهم ألم المرضى، ووجع الناس الحقيقي. أسوار المطبخ وغرفة النوم تجعلانني امرأة فارغة من الحياة. روحها أشبه ببيت مهجور حتى لو عمرته عنكبوت فرحت. فقدت شعري، ورموش عيني الكثيفة، فقدت جاذبيتي وحمرة خداي. تذكرت موسم التفاح الذي جرني لتلك التجربة الحلوة بدءا و البئيسة ختاما. آه أمي وحدك بقيتي معي بعدما رحل الكل !

البروفسور ويليام رجل عشقت حياته، ومدى استعداده الدائم لوهب وقته من أجل مرضاه، شريطة أن يكونوا متعاونين وبخير. في تلك اللحظة اقتربت منه كثيرا، لدرجة وجدت مع نفسي أنه صديق صالح لي، ساعدني أكثر من طبيب بل صديق على تجاوز محنتي التي طالت وقتا يسيرا، لكنها بالنهاية انتهت على أفضل حال، وقد استعاد رحمي عافيته، و استعدت حريتي، بعد حصولي على الطلاق من رجل ظننته في وقت ما شريكا فعليا لحياتي بكل تقاسيمها، لكن كشفت لي الأيام أنه ليس كل ما يلمع ذهبا.

أقيمت لي حفلة ولمجموعة من ضحايا السرطان العنيف والقاسي بمراحله الشاقة بدءا بالعلاج حتى حالات الاستئصال أو الموت، وربما الولادة من جديد، لقد ولدت من رحمي، رحم الحياة. و أنا على أهبة الاحتفال عرض علي البروفسور صاحب الحفل أن ألتحق بفريقه الطبي وهو سيضمن لي فرصة للتكون والتخرج كممرضة، وبذلك سأعيش بكرامة ولن أكون ملزمة بالبحث عن عريس يتكلف بنفقاتي والمقابل أدفعه بالمطبخ أو السرير. فقط عندما أحب يمكنني أن أبدأ حياة زوجية متكاملة. فهمت إلى حد ما أنه ليس لأي كان الحق في أن يستمتع بجسدي ويستخدمه بمطبخ أو سرير.

خالد تزوج باختيار من والدته، بعد أقل من خمسة أشهر على طلاقنا، أصلي لله من أجل زوجته، ضحيته الثانية. لم أعد أفهم كيف يفكر، فقد كان ساكنا ولا يردد إلا صوت والدته الخالة فاطمة، وصوت خالته الخالة

أمينة. فل يكن نفسه يكفيه أن يعبث الناس بحياته. المهم أني أعيش حرة، أشتغل وأدرس، وأساعد الناس. كل يوم أرجع للبيت أجد أمي تنتظرني على العشاء، نتعشى معا، نحتسي أكواب الحليب، تذهب لتنام، أكتب يوميات، ثم أنصرف لمضجعي استعدادا ليوم آخر أعيشه لأجلي والناس.

رجل ملتحي

عندما كنت في ربيع طفولتي المبكرة كنت أخشى من أي رجل ملتحي، أو حتى له شنب، خف أو كثف. كنت أخشى كثيرا من ظل والدي إذا لم يحلق ذقنه لأيام. كان كلما اقترب مني احتميت بوالدتي، و كانت تغرق في ضحكها الحلو، لتقول له :"معها حق يجب أن تحلق ذقنك".

والدي يكون طيبا وباسما في تلك الصباحيات التي يكون فيها حليقا أنيقا. كنت أعلم حينها أنه سيكون كريما معي، وعندما يقترب الشهر من نهايته تظهر الشخصية الأخرى منه، فيبدو لي مكهربا مخيفا وعلي أن أكون أكثر حذرا منه، ومن علامة ذلك بروز اللحية من جديد. لم أكن أفهم ما السبب لأني كنت لا أعرف ما معنى بداية الشهر ونهايته، لا أعلم ما معنى أن تكون الجيوب دافئة أو مثقوبة، لكن الآن أصبحت أفهم أكثر.

كبرت وكبرت مفاتني. تعلمت وأخذت شهادتي. أصبحت معطلة عن العمل وجيوبي دوما منخورة.

لو كنت طفلة لتساءلت لماذا لم تنبت لي لحية كوالدي؟ ربما لأني امرأة والقوامة تقع عليه فقط. لكن الوضع اليوم اختلف، وأبي ينتظر أن أحصل على وظيفة. كان همه في طفولتي لوازم البيت وكسوة العيد، لكن الهم اليوم تضاعف. أمي تتناقض في آرائها، تقول لي في نظري يجب أن تتزوجي بأول رجل ميسور وسيم يطرق بابك و الوظيفة ستأتي فيما بعد، وعندما يأتي العريس بنفس المواصفات التي تريد تكون هي و والدي أول من يغلق الباب في وجهه،بدعوة أني لازلت صغيرة السن على الزواج و أني أريد متابعة الدراسة، لم أعد أفهم ما هو سن الرشد و الصغر والكبر.اليوم عمري يبلغ 29 ربيعا و 4 أشهر و 11 يوما.هل يعقل أن يكون سن الزواج هو الثلاثين فما بعد؟ لا أحد حينها سيقبل بعانس، المجتمع يقول ذلك، إلا إن كانت لي وظيفة حكومية مشرفة، أو جواز سفر مرفق بتأشيرة.أما عن جمالي فأرض الله كلها

سحر وجمال. في الحقيقة أنا لا أفكر مثلهم لأن الرجل ليس همي الأول. الاستقلال المادي هو همي، لا أريد أن أقول أني لا أريد إنشاء أسرة تنبثق أصولها مني،لكني أبحث عن شيء بداخلي ضاع مع طفولتي. لا أريد رجلا يحلق ذقنه في بداية الشهر ويتركه عند العشر الأواخر. رغم ذلك أبي رجل طيب وينصحني بالرجل الصالح، على ألا يكون سكيرا مقامرا مفلسا. فالكفر والفقر سواء.

في أيامنا الرمضانية المباركة سمعت أبي و أمي يتحدثان عني. من دون قصد جرى الحديث على مسامعي، وأنا أنتقل من المطبخ لغرفتي.

-أبي: ابنتنا الصغرى جاءها عريس.

-أمي: ماذا؟ من يكون؟ ابن من؟ قل، أخبرني....ما ذا يعمل؟

-أبي: بعد أن صلينا التراويح جاءني تاجر المعادن مصافحا باسما، و قال لي أنه يريد ابنتنا الصغرى لابن أخيه.

-أمي: نعم أتمم.

-أبي: إنه فتى في الثلاثين، كريم الخلق، طيب المعاشرة، ملتحي، ملتزم، مهندس ومقيم في فرنسا.

سمعت أنه ملتحي والتحاء أبي غير التحائه لأن الكلمة تبعها ملتزم، أنا لا موقف عندي ضد التحاء الملتزمين، بالعكس إنه أمر محبوب،لأنه إعلان عن الصلاح لا فراغ الجيوب، لأنه يساوي صوما وقيام ليل، وحسن خاتمة، وهذا أمر محمود.

بعدما كبرت وكبر إخوتي أصبح التحاء أبي التزاما، لحيته البيضاء تجعله يبدو من أولياء الله الصالحين. استمر النقاش بين والدي، وسمعت أن والدي يريدني أن أتابع دراستي بسلك التعليم العالي، مهما كلف الأمر، حتى على حساب سنوات العمر.

عـرض عليـه أن يـرتبط بإحـدى أختي اللتـين تكبرانني بـالأربع والخمـس سـنوات واللتـين تشـتغلان مـوظفتين بالعمالـة، تتقنـان الطـبخ والتنظيـف والصبر. أما أنا فلا أتقن غير الجلوس بالشرفة برفقة كتاب من كتب القرن السادس عشر، أعيش زمنا ليس لي و أتخيلني من حين لآخر أميرة من أميرات القصـور البريطانيـة أو حتى العباسـية. أهـتم بإطالـة أظـافري و استرسـال شـعري الكسـتنائي الطويـل خلـف ظهـري. ارتـداء ملابـس غريبـة تـوحي بتفـرد شخصيتي. هـذا الرجـل الملتحي يريـدني ويحترم رغبـاتي، ولـن يسـعى لـفرض أي شيء علي دونما إرادتي.

قلت لأمي في اليوم التالي أني سمعت الحوار الذي دار بينها وبين والدي، وبـأني موافقـة ولـن أنتظـر الأوهـام حتى تصـبح فرسـا حقيقيـا و أركبهـا لتصـطحبني لقمـم الجبـال. عقـدة المجتمـع كانـت تنبثـق مـن أسـارير والـدتي لتقول لي:

- ومـاذا سـيقول النـاس؟ تزوجـت الصـغرى وبقيـت الكبيرتين؟ لمـاذا مـا السر؟

- و أنا ما شأني أختي وفقتا في الحصول على عمل مشرف، وأنا وفقت في الحصـول على زوج صـالح، مـا العيـب في ذلك؟فرقـت الأرزاق في الـدنيا تفريـق حظوظ و في الآخرة تفريق جزاء.

لم تكن أمي لتنبس بكلمة. لكن القدر كان أكثر سرعة. بعد شهرين من ذلك اليوم كنت أرتدي كسوة العرس البيضاء. تزين المصففة شعري و أخرى تبرجي. في تلك اللحظة فقط تذكرت زميلا لي، كنا ندرس بنفس الفصل بكلية الاقتصـاد، كنـا نحـب بعضـنا كثيرا ،لـم يكـن ملتحيـا لا التزامـا ولا في آخـر الشـهر، لـم يكـن سـوى رجـل مخـادع، خـائن و أنـا فتـاة بلهـاء. هـاجر لفرنسـا لمتابعة دراسته قبل سنة ونصف. انقطعت أخباره عني بالمرة. قيل لي أنه تزوج من فتاة ألمانية مقيمة هناك، ليضمن قوته وبقاءه . كان من الأفضل لو لم يسافر و لن أمانع بخصوص لحية آخر الشهر.

أنا أيضا اليوم أتزوج انتقاما منه، ورحمة بنفسي، لكن بعد ليلة الدخلة تلك اكتشفت أني جنيت على نفسي، ارتبطت برجل رغم أن عمره قضاه في الغرب بداخله لا تزال نكسات الشرق حاضرة. أحسسته يريد أن يثبت فحولته أمام نفسه و كان سعيدا لأنه أول رجل بحياتي، لكن الحقيقة تقول أي نعم هو أول رجل على خارطة جسدي، لكن قلبي وطن اغتيلت أحلامه و هذا أمر لن أجرؤ على البوح به أمامه. هكذا كانت أمي تلقنني دروسا عن دور الزوجة المحترمة المخلصة المتفانية، نفاق في نفاق.

الغرب بوابة جديدة كنت أرغب بأن أطأها زائرة لا مقيمة، لكن هذا الرجل جعلني أحس أني أفغانية عندما جلب لي أزياء تخص ثقافة ذلك البلد. أعلنت عصياني وأمي كانت تنصحني بطاعة الزوج،لأنها تأتي بعد طاعة الوالدين، وافقت على الارتباط به دون رضى والدي وها أنا أجني ما زرعت، قال لي أنه الشرط الأساس لتجاوز أسوار هذا البيت. كانت لحية آخر الشهر أرحم بكثير منه. يجبرني على كل شيء بالليل و يقول أنه ملتزم، و بالصباح ينتظر أن أكوي ملابسه و أنظف مسكنه و أطهي مأكله. أفرغ خزانتي من كل تلك الكتب الغربية والعربية، ملأها بكتب طاعة الزوج، حقوق الزوج، البيت الصالح،... أفرغ التلفاز من كل القنوات التي تبث برامج تثقيفية، كان يعلم أني امرأة مثقفة ثائرة في هدوئها، وكان يخشاني. يعلم أني كنت إحدى المناضلات بالكلية، ويعلم أني تركت أول وظيفة لي بشركة لمجرد أن مديري بالعمل حدثني بشكل آمر ناه ، أخبرته بهذا كله قبل الارتباط، لكنه أحبني و ابتلي باستعبادي، ظنا منه أنه يحافظ علي ويضمن بقائي. خصوصا عندما منعني من استعمال موانع الحمل. يريد الكثير من الأطفال. لكني لم أكن أعلم أنه يبحث عن امتداد له، فقد توفي بعد أشهر بسبب حادثة عمل. حقيقة تأسفت وبكيت كزوجة صالحة وارتديت على حداثة سني ملابس بيضاء تأكد ترملي و أغلب أصدقائه يرتدون السواد، و أشقاؤه لم يكترثوا للون الملابس المنتقاة، فالفاجعة أكبر. لم أكن أحبه و كنت أكره فيه الكثير من الخصال، لكن رغم ذلك كنت أكن له الكثير من المودة والرحمة كأية زوجة ارتبطت من غير حب.

حمدا لله أن الحمل لم يحصل، فالأمر صعب علي، خصوصا عندما تفاجأت بكون إخوته تماسيح في صورة بشر، كادوا يلتهمونني سلبا ونهبا ورغبة في إعادتي من حيث أتيت، لولى رحمة الله لأصبحت أرملة في مجتمع يثقل كاهله بالقذف في أعراض الناس.تركت لهم المنزل في غفلة، أخذت متاعي و تلك المجوهرات التي كان يغرقني بها الفقيد، ليبرز قيمته المجتمعية كلما عدنا للوطن، بالإضافة إلى ذلك التعويض الذي بعثته لي شركة التأمين بعد أشهر قلائل، حقيقة لن أكون ناكرة للجميل و أقول أنه كان سيئا معي، فلا ندري لعل الخير يأتينا في صورة الشر أحيانا.

عدت لفرنسا، تركت المسكن و الصحبة والمقام، بقيت لأشهر منعزلة عن الناس، لا أعلم ماذا أفعل؟ فأنا أشعر بالضياع، لكن ليس في تلك النقطة ستنتهي الحياة، لا بد من المسايرة و قد تبدأ من دبلوم الاقتصاد الذي يؤهلني لدخول سوق الشغل، و تحقيق اسمي بالشكل الذي يرضيني.لكن ليس من دون رجل آمر ناه، ليس من دون زوج أو ابن أو أب أو أخ، حتى لو كان هو من يطبخ بالبيت وأنا من تشتغل، لأكف ألسنة الناس عني، فأنا أرملة شابة ولي نصيبي من الجاذبية، غير معقول أن أبقى وحدي في بلاد الغرب. هذا ما أخبرتني حماتي وأمي، لكني لا أشعر بالاغتراب. الاغتراب الحقيقي هو عندما أشعر أني ضائعة، تائهة، محكومة بقانون شكلي. لا يهمني أن يكنوني بما يشاءون، فالكلام بضاعة وكل ينفق ما عنده، و إن أخذت كلام الناس بجد فلن أعيش لنفسي، بل سأكون دوما الصورة الزائفة، المزيفة لغير آخر أسكنه جسدي. لن أكرر نفس الأمر بانتظار نتيجة أخرى مختلفة، لأن ذلك هو الغباء الحقيقي.

القبلة الأخيرة

نفس المدينة تضمنا من جديد.رمقتك عيني من بعيد، تظاهرت بكوني لم ألمحك، لعلك تسرع الخطى إلي، لعلك تخلق شيئا من الخفقان بمفاجأة جميلة تحملها بين يديك لي، باقة ورد حمراء، أو حتى وردة واحدة بيضاء. مذكرات دونتها في ساعات شوق لي، أو حتى ورقة واحدة تحمل قصيدة تصف مدى شوقك لي. خاتم تقدمه وأنت تنحني على ركبتيك تطلب قربي وودي وحبي، وتطوي ما مر بيننا من ألم ومعانات. لا شيء من تلك الأشياء فعلته لأجلي...ضممتني إليك ببرود أحرق كل ذلك الشوق وتلك اللهفة التي كنت أخبؤها بين ثناياي طوال تلك الشهور التي فرقتنا. أحسست أني أحضن قلعة من العصي علي إذابة ذلك الجليد الذي غطاها. كنت أعلم أن الشوق والحب الذي بيننا قد مات وأنك أعدمت أمل ولادته من جديد عندما أعلنا انفصالنا من جديد. انفصالا لا أحسبه إلا أبديا.

جلسنا بمقهى "هواي" بدعوة منه، وبقبول مني، كالعادة طلباتنا مختلفة:

-قهوة

-شاي

وموسيقى أم كلثوم تصدح بصوتها من قلب المذياع ،وكأنها تتلو تراتيل المساء الأخيرة على حبنا الذي غطى وجهه موج البحار، وكتم أنفاسه صخرها:

" بعد ما اتعودت بعدك غصب عني

غصب عني

بعد ما نسيت الأماني والتمني

كلمتين اتقالوا

شالوا الصبر مني

وابتدا قلبي يدوبني بآهاته".

توقف الكلام بيننا وبدأننا ننصت، تساءلت ولم أنتظر جوابا:

-هل استطعت التأقلم مع فعل الغياب؟

-بل فعلت أنت، أما أنا فكنت ميتا أمارس فعل الحياة.

-استطعت أن تنساني بين الأجساد كالعادة.

-بل كنت أبحث عنك بينها.

-وعدتني ألا تخون، لكنك فعلت.

-كان لابد أن أفعل لأدرك قيمتك.

-موازينك مختلة فمن يحب لا يخون.

لم أشأ الدخول في نقاش حاد محاسب معاتب بيننا فلتو التقينا بعد شهور طويلة فصلتنا عن بعضنا. قادني الحديث معه رغما عنا معا لفعل العتاب، أحسست أني أصبحت شخصا ثانويا بحياته، وكان يشعر أنه ما عاد ذا أهمية كبرى بالنسبة لي.

الحقيقة أن حضوره بحياتي لم يعد أساسيا، تعلمت أن أحتفظ بالحب في قلبي، بحبه في قلبي. حاولت أن أراجع في صمتي الوضع، وكان يحاول الْاقتراب مني. كان يسعى جاهدا لكسر كل تلك المسافات الشاسعة التي خلقها البعد، حاولت أن اقترب منه بكل جموح امتلكني عندما كنا معا قبل خصامنا الأخير، لكني لم أكن قادرة على الاستجابة له.

عدت لبناء المسافة بيننا من جديد، أسندت ظهري على ذلك الكرسي الخشبي الذي كنت أملأه بعنفوان امرأة متجبرة. أخذت كوب القهوة بين يدي جعلته يقترب من شفتي دون أن أحتسي منه، وكأني أحمي رغبتي الباردة منه، خشية أن تتحرك رغبة القرب بداخلي اتجاهه. في الوقت الذي أخرج من جيبه سيجارة أشعلها دون أن يستأذن مني كما عودني، لم أشأ أن أبرز أدنى اهتمام به باعتراضي على تلك السجائر التي يدخنها تباعا محاولا إحراق

كبريائي واستعطافي الماضيين. لا أدري كيف تغيرنا وكيف أصبحنا غريبين بهذا الشكل.

كان لقائنا الأول بدون أي استعداد، تأخرت يومها في الرباط وكنت ملزمة بالسفر ليلا لمكناس، لم أنتبه في أي مقعد أجلس بالقدر الذي كنت معه مهتمة بالوصول لمكناس. غير أن القدر ما أسعفني لذلك، فقد تعطل القطار وبقينا ليلة شبه كاملة في العراء.

كان هاتفي حينها قد خلص شحنه، فوجدتني مضطرة لطلب العون من المسافر الجالس قربي، ذلك الفتى المنكب على قراءة رواية:"أبو حيان في طنجة" . كنت قد سبقته لقراءتها، فنسيت أمر الهاتف وقلت له:"تراك تبحث أيضا عن نهاوند؟". نظر إلي، رمقني بعينيه الرماديتين بعمق، حتى أحسستني متطفلة بقسم أستاذ محاضر شديد الانضباط. لكن سرعان ما كسر عبوس اللحظة و ابتسم، ليسألني:" لم يجدها أليس كذلك؟"، أحسسته قارئا نهما ويبحث عن نهاوند مثل أبي حيان، أكثر من بحث القاضي عن الحقيقة. قلت له:"لن أكسر متعة التشويق عندك، لكنه ظل يبحث عن نفسه أيضا، هل تعتقد فعلا أنه مفقود؟"، قال:"بل أحسب أن مصيره مجهول وهذا ما جعل الكاتب يوظف قصته بشكل ذكي جدا في العمل الروائي...".

أضفت:" ذلك التوظيف للتاريخ مهم جدا في حبْك الروايات الأمر الذي يعطيها واقعية أقوى، ذلك ما فعله أمين معلوف مع عمله:"سمرقند"، أو إليف شافاق مع روايتها الجميلة:"قواعد العشق الأربعون" وهي تتحدث عن القصة التي جمعت شمس الدين التبريزي و جلال الدين الرومي عن دين الحب أو التصوف....". طال بنا الحديث ولأول مرة يقع الأمر بالنسبة لي مع غريب عني. توقف الحديث بيننا لأجدني مضطرة للاعتذار، لكنه استوقف اعتذاري شاكرا لنفاذ شحن هاتفي الذي جعلني أتحدث معه.

-دعيني أقدم لك نفسي. "معيد"، من الرباط، أستاذ محاضر.

-مروة، سنة أولى دكتورا، معطلة عن العمل، كما أني كاتبة.

-جميل أن تكون الأنثى كاتبة. يتضاعف وزن الإبداع.

-لمَ ؟ فقط لكون صاحبته أنثى يزداد جمالا بها؟

-لا، لم أقصد، لكن لغة الأنثى أكثر رقة وقوة إذا ما تعلق الأمر بجيشان القلم الإبداعي.

-قد لا أتفق معك، أجاثا كريستي كتبت أروع القصص والروايات البوليسية. لعلك تفرق بين القلمين.

-الإبداع واحد لا أفرق بين كاتبيه، لكن للصدق أجد سحر كتابات أحلام مستغانمي خاص، لا أجده عند كاتب. وأجد كتابات غادة السمان شديدة الرقة، عن كتابات الكتاب.

-محق.

-لا خلاف إذا.

-الاختلاف موجود لكن الخلاف غير موجود.

تحدثنا بعد الحديث الذي جره الشحن والكتاب والقطار....وأصبحنا صديقين مقربين. دون شعور مني أصبحت أهرول لخلق الصدف لنلتقي وكان هو البطل الذي أجده أمامي بدون سبق إصرار أو ترصد.لكن حقيقة كنا نتصنع كل تلك الصدف الجميلة. هو يدرس بنفس الجامعة التي أدرس فيها، ويمر كثيرا بتلك الساحات التي تظم محتجين معطلين مثلي. بدأنا نقترب من بعض أكثر ووجدتني أقع في حبه في الوقت الذي كان يجدر بي ألا أهب قلبي لرجل. وجدتني أقترب منه، في الوقت الذي كان يجب أن أبتعد.وجدتني أثق فيه وأعمي بصيرتي في الوقت الذي كنت أحسبني ناضجة نضج سيدة متعلمة عاقلة. دعاني بعدما اكتمل على علاقتنا العام، لحفل عشاء بمناسبة حصولي على وظيفة بوزارة الثقافة. فقبلت كعادتي. لم أجد من بد لأخفي عنه زينتي. تبرجت بالشكل الذي يجعل رجلا يفتتن بسيدة شقراء ذات جسد نحيف و عيون خضراء، وبشرة برونزية لامعة. أظهرت فتنتي لأشرده من تعقله وثباته وأجعله لا ينسى ذلك العشاء الذي جمعنا معا، بمطعم راق

بعيد عن ضوضاء المدينة وشوارع الرباط. رقصنا طويلا، ولم يكن بالرجل الذي يفهم فن الرقص ويقدر فن ذوبان الخاصرة بين أنامل رجل يحسن فن الإثارة وتحريك الرغبات. لا أنكر أنه أشعل رغبة الأنوثة الخامدة بداخلي... كنت أنتظر أن تنتهي المعزوفة لأخذ مقعدي والجلوس وملء المكان بصمتي. تعشينا ونحن ننصت لهمس النجوم التي تقبل خدي وتراقص عينيه. نظرت بابتسامة باهتة تعلن كتماني لشيء نرغب به معا وأنا أنظر لربطة العنق التي يضعها ولساعة اليد التين أهديتهما له في لقاءاتنا الأولى، كان ميلاده وكانت تلك ساعة احتضار قوة كتمان الحب أمامه. غطاني بذراعه يومها من خوفي وجعلني أطمئن لتلك الشباك التي أحسن حبكها ليوقعني فيها. دون أن يبقيني على حذر. انتهى حفل العشاء، غادرنا المكان، ركبت سيارته بجانبه ، دعاني لبيته، رفضت كعادتي، لكنه لم يرفض مرافقتي لبيتي الخاص، قولا أنه يريد الاطمئنان علي ثم الانصراف. استقبلته بصدر رحب، في غرفة مكتبي، كنت أعلم أنه سيستغرب من مكان الاستقبال لكن حبكة قصتنا كلها في كتاب. كان الوقت متأخرا ولم يكن يجدر به البقاء ببيت عازبة لوقت طويل، لكن وجدتني أرغب ببقائه ووجدته يرغب بالاقتراب، وقد فعل. اقترب مني بالقدر الذي ألغى كل تلك الحواجز التي سعيت لخلقها منذ تعارفنا،ضم خاصرتي إليه، لامست شفاهه شفاهي، شدني إليه، وشد الليل نفسه إلينا. كنت شبقية بالقدر الذي لم أكن أتوقع في نفسي، قضى الحب بين أناملنا ليلة كاملة، بين عراك و استسلام، بين حب وصمت وكلام. وكان أول رجل يبصم على جسدي حق ملكيته له. كنت أبلغ من العمر حينها الثلاثين، أخذت الدراسة من سني العمر الشيء الكثير، الأمر الذي جعلني أتجاهل حاجة جسدي لرجل، كنت أرفض الزواج وكانت عائلتي قبلي ترفض ارتباطي. كل إخوتي تزوجوا و أنشأوا عائلات لكن لم أفعل، لأني كنت أحلم باستقلال مادي يضمن لي كرامتي، وها أنذا أبيع كرامتي على فراشي مع رجل قد لا أضمن وفاءه و اعتداله. لكن لم أشعر بالندم عندما غادر صباحا منزلي، آخذا ما تمتلكه فتاة تكتنز العلم والجمال. كان ثمن الحب باهظا. لكن لم أندم يوما على شيء أقدمت عليه، كانت ليلة باهظة الثمن وكانت تستحق أن أذكرها

كل ليلة قبل النوم. كنت أعلم أن جسدي ليس الوحيد الذي غزاه هذا الرجل، بل كان صادمي وهو يحكي لي عن تلك الأشياء التي عايشها قبل أن ينهي دراسته وقبل أن يحصل على عمل، كان يبيع اللذة ليعيش، كان يعاشر النساء ويسكت رغباتهن مقابل الدفع ليسد رغباته وحاجياته. شعرت بالغثيان عندما علمت بذلك، حتى أني ما عدت أرغب به.

لكن في وقت ما سامحته وغفرت زلاته. الحب يعمي ويصم وقد أعماني وأصمني وشل حراكي. حاول جاهدا تكرار الليلة لكن كنت أرفض بشدة.

ابتعدت عنه عندما كان يحاول الاقتراب من جديد، جعلت العمل دافعا للهروب، هرولت لمحاضرة بتونس وبأخرى بمصر، للقاء أدبي بالأردن و آخر بالجزائر، عساني أخلص نفسي من ثقل اللحظة. لم يكن ليستوعب بعد سبب هروبي، ولم يكن يفهم أني فقدت ما يجعلني أقفز من كوني آنسة لسيدة أو مدام. كنت أحسب أن لقب رجل بعد الزواج ما سيحكم في تغير لقبي وحالتي الاجتماعية، لكن شيئا بداخلي تغير، فكرت في أن نصلح الوضع وأطلب منه أن نتزوج، لكن كنت تقليدية بالقدر الذي تمنعني أنفتي من استعطاف رجل من أجل تصحيح وضعي، ومسايرة نفاقي الإجتماعي. أرخى الحبل من جهته في الوقت الذي كنت أسعى لشده.

وكان القدر علي قاسيا عندما بدأ يتغير حجم خصري، واستقرار نهداي، فقد زرع بذرته بأحشائي وأراد أن يزرع كالفلاح أكثر. غير أن الفلاح أكثر أمانة يراعي أرضه ومحصوله حتى النهاية، أما هو يستغلني أبشع استغلال، هذا ما لمسته وأنا أحاول رد اعتباري، ونحن جالسين معا بمقهى الحافة يومها بطنجة *.

-أنا حامل.

-ماذا؟

* طنجة:مدينة مغربية ساحلية تقع بشمال المغرب تكنى بعروس الشمال.

-أنا حامل.

ترك المكان وتركني في وجومي شاخصة في رحيله الصامت، مضيفا وهو يرحل:

-لا تحاولي التلاعب برجل قضى عمره بين أفخاذ النساء.

كان جاهلا بجسد المرأة وطبيعته، كان يعرف قيمة اللحظة التي تجلب المتعة فقط. كرهت حينها ذلك السرير الذي ضمنا معا، فور عودتي من طنجة هرولت لتلك الذكريات التي جمعتها أضرم النار فيها، وأبكي وأصرخ، صرخة جعلتني أحرق رغبة امرأة في الحياة. أصبحت مجرمة عندما عريت جسدي من كل تلك الملابس التي تستره، بدأت أنظر لتضاريسه وهضابه بالمرآة، لامست بطني، ونهداي، لامست شفتاي، وتساءلت كيف سمحت له أن يغزو مملكتي، ويبصم على جسدي:"الضحية الألف"، والله وحده يعلم ماذا سيأتي بعدي؟ هناك فقط قررت أن أقوم بالإجهاض. سأجرم بحق طفل روحه تنمو بين أحشائي، كنت سأكون أما سعيدة تعد الثواني لقدوم وليدها لو كان قدومه شرعيا طبقا للأعراف والتقاليد حتى لو كان الطفل من زوج لا أحبه. لكن هذا البطن من رجل أحبه ترك الكرسي ورحل عندما أخبرته بقدوم وليده مني. هل كان يحسب أنه مجرد رقم رجل في حياتي، هل كان يحسب أني أشبه كل النسوة اللاتي عرفهن وعاشرهن، كنت مختلفة وجعل مني مجرمة تفكر في إعدام حياة، وروح. قتلها يساوي قتل بشرية جمعاء. لكن ما أفعله هل أبقيه على قيد الحياة ليقتلني يوما؟ أو أبقيه على قيد الحياة لأقتل به؟

أجهضت بالوسائل الحديثة، وطرقت باب عرافة لأعرف ما يخبؤه لي المستقبل المكشوف في السماء الدنيا.فعلمت أني أصبحت امرأة ميتة. أخذت لي من الدنيا شهورا لأرتاح من وقع الألم الذي جره علي ذلك القطار وتلك الكتب وذلك الشحن الذي خلص. لكن الناس ما تركوني. فقد بدأ أستاذي المشرف يزروني بعدما علم باحتضاري، كان عمري باقيا لكن كنت فعلا أحتضر. استطاع فعلا أن يساعدني في الوقت الذي رحل فيه معاذ تاركا أكبر

بقعة سوداء بحياتي. وأكبر برود سيلازمني للباقي من عمري. أثر الإجهاض باد في بطني، حاولت إخفاء ندوبه بعمليات التجميل، لكنه بقي عالقا بروحي رغم أني نجحت في إخفائه. واقترب مني أستاذي ليداوي جراحي التي لم يستطع بعد تشخيصها ولن أكشفها له. كان يحسب أن إخفاقي الدراسي هو السبب، ليتبنى معي من جديد موضوع الدكتوراه،... و يسعى لتحقيق سبل السعادة من أجلي، رجل يكتفي بلمح رضاي وابتسامتي ليكون سعيدا. لا يهمه جسدي أو قبلة تغير من طبيعة علاقتنا، كنت أحس أنه يحبني، لكن قلبي رحل وتركني ليسكن بالقطب الشمالي حيث تتركن كثل الثلوج الباردة. حتى جسدي أصبح خاليا من التعبير. حاولت استعادته، عندما عاد معاد ليلتقي بي، في الوقت الذي وجدتني بين رجلين، واحد يريد ليلة واحدة معي و الآخر يريد عمرا كاملا معي، واحد يريد قضاء ليلة لم يجدها في جسد آخر يشبه جسدي، ورجل يريدني أماً لأبنائه ورفيقة لدروب حياته، رجل يريد قتل مواهبي وكفاءاتي ورجل يريدني قوية بعلمي ومعرفتي، رجل يريد أن يسجنني بدائرته و لا يبقي على غيره بحياتي و آخر يريد أن يتعرف علي الكون كله...ويحترمني. رجل اعتاد الرحيل و الآخر يريد الاستقرار. قررت أن ألتقي بمعاد في تلك المدينة التي جمعتنا لأتخذ قرار العودة أو الرحيل، كنت أخشى دوما من أن يتمرد علي شبح حبه إذا ما قررت قبول طلب أستاذي بالارتباط. كنت أخشى أن أخونه بالذكرى و أمارس عليه فعل تذكر معاد، خشيت من أن أخونه، وكفاني أني سأجدد عذريتي وأخفي عليه مسألة حملي وإجهاضي وأنكر أني عرفت رجلا قبله، وأني مارست كل الحياة معه، سأتقن فعل النفاق لأن الصدق سيجعل بالي راضيا لكن لن أسعد...هكذا ضمنا مقهى هواي، وهذا ما رددته أم كلثوم ونحن جالسين.

-ماذا تريد معاد؟

-أريدك أنت؟

-لا أحسب أن غايتك تغيرت

-لكن أحبك، بكل السبل لازلت أحبك.

-لذلك تركتني، وجعلتني أبدو مجرمة في عيني نفسي.

-أخطأت وكان من الصعب علي التصديق.

-لم يعد مهما.

-بل لا يزال مهما.

-نهاوند أمامك لكنك لن تجد روحها.بعثرتها، أعيش اليوم جثة من دون روح.

-أعلم، حتى جلستك على الكرسي تكشف ذلك البرود.

لم أكن أرغب بجر الكثير من الوجع علي. شهور مرت علي مرور دهر، فقدت ثقتي الكاملة في معاد وفقدت رغبة الحب معه ورغبة القرب منه، احترت في أي القرارات أتخذ،غير أني وصلت لقناعة عدم خداعي لأحد، لن أرتبط بأستاذي، ولن أرتبط بغيره، ولن أصحح علاقتي بمعاد. فكرت لثوانٍ في ماذا لو كنت فتاة لا تمتلك المال ولا الجاه ولا العلم؟ لكنت أعدمت على يدي قبيلتي، لكنت انتحرت على يدي، فكرت في مثيلاتي وفي نساء كن ضحايا لاغتصاب لم يكن بيدهن ردعه، مستضعفات مقهورات. تساءلت كيف لرحم أن يجلب العار كما يجلب العز. قرأت مرة في أحد كتب نوال السعداوي قصة فتاة من العراق وجدت مقتولة، بسبب انتفاخ بطنها، عندما شرحت جثتها اكتشف أنها لا تزال عذراء، وبأن غشاء عذريتها من النوع السميك الذي لا يسمح حتى بمرور الحيض، والذي يلزم بتشريح طبي بسيط حتى تمر منه الحيض، الشيء الذي راكم الدماء برحمها فانتفخت وحسب أنها حامل، كانت المسكينة ضحية الجهل بجسد أنثى، هذا الجسد الذي يهدد شرف قبيلة ولابد من حمايته حتى بالنفاق.

اخترت أن أكون صادقة ولا أقحم رجلا بحياتي.ولا أكرر خطيئتي. هذا كان آخر ما نبست به بعدما بصم على يدي قبلته الأخيرة مستعطفا بتجديد الماضي ومسايرة الحاضر وبناء المستقبل. كنت متأكدة أن عودتي إليه انتحار

جديد، و جريمة من الصعب الخلاص منها إن قبلت وسمحت لشفتي بأن تهبه بداية جديدة.

فاطمة

هذا الطقس الشتوي يشعر نفسيتي بالتعب، وتلك الأمطار المتهاطلة بعنف تذكرني بمخلفات الزمن على ذاكرتي التي تكسرت كشظاياها تماما، كهذا الكأس الزجاجي الباهت،انزلق من بين يدي، اندلق الماء الذي كان فيه، ليشكل على الأرض وقطرات الماء الثقيلة بركا متناثرة أرضا، لوحة لن أقول عنها زيتية جميلة، بل لوحة من ماء وزجاج وعدم انتباه .لوحة قررت أن أسميها على اسمي:"فاطمة".

البيدقة الأولى:

ولدت في أواخر الثمانينات، من أصول صحراوية ومن عائلة فقيرة، بل أكثر من فقيرة، لا أدري لماذا فكر والدي بالاقتران وهو يعلم جيدا أنه عاجز ماديا ومعنويا عن تكوين أسرة؟ و لماذا والدتي سمحت لنفسها بالدخول في دائرة هذا القرار؟ علمت أنهما أحبا بعضهما ولأجله تحدت العائلة ورفضت ابن العم، الذي كان على الأقل سيكرمها، وبهذا لا أصف والدي باللؤم أبدا، فليس هنالك من فتاة صالحة أو حتى قريبة لصلاح قد تكون قريبة من ذلك لكن والحق أقول، أبي رجل كريم ومعطاء، وإن كان ثمة أمثلة تتوارثها الألسن، ولكنها ليست دوما ذات مصداقية، قصدت بقولي:" فاقد الشيء لا يعطيه"، كنا لا نمتلك شيئا وكان يقتسم إفطاره على شدة بساطته مع المسكين الذي يسترق قلوب الناس بضعف حاله. كان غريبا ومتناقضا، وكنت أحبه، كما أحب أمي وليس كما أمقت نفسي بعض المرات.

البيدقة الثانية:

رغم انتمائنا لجذور صحراوية إلا أننا نقطن بمدينة أطلسية حاليا أغلب سكانها مختلفي الأصول، معروفة بالبساطة كما نحن، أما قبل بضع سنين،وأقصد سنوات الطفولة فقد كنا نقطن بقرية صغيرة تابعة لميدلت وتدعى:"مبلادن"، هنالك ولدت وهنا كبرت، لم يكن المكانين يشكلان بالنسبة لي فاصلا ، فمعاناة الفقر والحرمان والشقاء كانت لصيقة بي وحتى حقيبة الذكريات لم أكن يوما قادرة على إفراغها وإضرام النار بمحتوياتها ،حتى لا أتمكن من استرجاعها مكرهة، تقول كاتبة ما أن المرأة التي لا ذكريات لها هي امرأة فقيرة، فماذا أسمي نفسي أنا؟ ربما الفقر تتعدد مفاهيمه حسب اختلاف الطبقات الثقافية و الاجتماعية أيضا،حتى وأنا أمتلك الذكريات فأنا فقيرة، بل أزداد بها افتقارا و فقرا من و للراحة كل ليلة.

تحكي لي والدتي أنها ارتبطت بأبي عن حب وبعد صراع، تقدم لها ابن العم بسن مبكرة، بل كانت موعودة له منذ الطفولة، هكذا يثرثر الآباء والأمهات فور أن يعرفوا جنس المولود أو المولودة، أذكر أم أنثى؟ فيرتفع المزاد وكأنهم في سوق نخاسة:

-ستكون زوجة ابني

-بل زوجة ابني أنا

-بل زوجة ابني أنا

-ابنك اختاري له عروسا أخرى أما هاته فهي له.

أحيانا يتناسى القول والوعد والرهان، فهي ثرثرة يتخلصون من ثقلها فور تفرق المجمع كما نقول بلهجتنا العامية. قدر لأمي ألا تباع في سوق النخاسة تلك، فقد كانت قوية لتقول: "لا" في زمن يعد فيه الرفض تمردا وخروجا عن سلطة المجتمع، كبرت وهي موعودة لابن العم، الحقيقة أن ابن العم هذا، حتى هو لم يكن ليحبها فهو مرتبط بزميلة له بالعمل، هذا ما

سمعت والدتي ترددده يوم عاتبتها والدتها أي جدتي على تركه، و الارتباط بقاسم و قاسم هذا هو اسم والدي.والدي، قد لا أستطيع أن أكون حيادية وأصفه كما هو، وإن كنت أراه دون تصنعات البشر، أنا غير أمي فهي تراه ملكا منزلا من السماء. الحب أعمى كما يصفونه وعندما أراهما جالسين معا أدرك كم بصيرتهما صادقة، لا يوجد هنالك زوج أمثل من بعضهما لبعض، يتشابهان كثيرا.

البيدقة الثالثة:

لم يكن لنا مدخول قار نعيش منه، فمنذ فتحت عيني وجدت أمي تشتغل بالبيوت لتكسب قوت اليوم، وأبي ينتظر أن تعود لتعطيه ما جنته، فيبذره في القمار وتدخين كل أنواع الحشيش وربما يشرب الخمر خفية عنا، لست أدري كل شيء وارد. لم أتمكن من الدخول للمدرسة كباقي الصبية، وكم كنت أحلم بضم كراسة وأقلام ملونة بمحفظة أحملها على ظهري، تمنيتها بلون وردي ومرسوم عليها رسم: "فلة"، لأني أشعر أني هي. رغم أن أبوي على قيد الحياة، ولا أعيش تحت رحمة أحد بل تحت رحمة الله فقط، لكن أحسني هي كلما خلوت بنفسي لأعد النجوم المتناثرة بروعة في السماء، فقط في السماء تتساوى الكائنات، كل النجوم تبدو على منحى وبعد واحد ولا أفضلية لهاته عن تلك، كنت أعلم أن الناس عندما يموتون يتركون أجسادهم ليرتقوا إلى السماء، والسماء فيها الجنة والنار، فيها كل شيء يغيب ويحضر في عقل طفلة صغيرة مثلي، تلك الطفلة لا تزال تسكنني ومن المحال أن تفارقني، طفلة سنوات عمرها تتساوى و سني عمر الكهول. اعتاد والدي على أن يأخذ من أمي، دون أن يسألها أنّ لك هذا؟ أو لِمَ لم تأتي الليلة الماضية؟ أو لماذا تخرجين متبرجة على غير العادة. كان يعلم أنها تشتغل بالبيوت لكن من أصحاب هاته البيوت؟ الله وحده يعلم، كان يعلم أنها كانت تشارك في الاشتغال بجني الليمون بمدينة بركان الشيء الذي يكلفها غياب شهر ونصف، ثم العمل بحقول التفاح بمدينتنا التي نستقر بها، ثم تستمر دورتها بدورة الجني تلك، وعندما تنقطع ثمار الحقول، قد تتجه من جديد للعمل بالبيوت:"الموقف"، كان ذلك هو المكان الذي تقف فيه وزميلاتها بالعمل منذ السادسة صباحا،حتى يأتي من يصطحبها لتغسل أفرشة بيت ما في مكان ما، لم أكن أفهم حينها شيئا، لكني عندما كبرت فهمت الكثير، فقد تتعرض المرأة لأي فاجعة وهي ببيت مجهول، فالعمل غير مؤطر قانونيا ليحميها ويحميهن ويحمينا من أي مطب قد تقع فيه امرأة. بل الطامة الكبرى أن حتى الرجال قد يقعون بنفس المطب فتتحول من مستخدمة للتنظيف أو

مستخدم للعمل الشاق ل:"متاجرة بالجسد"، فقط الأمر قد يتراوح بين القبول والرفض، فهنالك من يعملون بشرف وهنالك من يتاجرون بالشرف، ذلك أن الشرف لم يطعمهم ويسد أفواه أطفال جياع، مثلي ومثل إخوتي. لكن، وأنا لازلت أحمل دمية ممزقة الملابس مثلي، أرسلت للعمل ببيت سيدة عجوز تعيش وحدها، تملك كل شيء لكن لا تمتلك زوجا و أبناء، سبحان الله. اختبارات الدنيا وأحوالها غريبة ولا تكتمل لأحد، ذلك أن الجنة لا توجد على سطح كوكبنا. وقد كتب علينا أن نعيش الشقاء، وقد ننعم قليلا ثم نرجع لظلمة أنفسنا لنحزن من جديد، لعل الحزن هو أخلص إحساس لم يفارقني، أعتبره صديقا ودودا دائما لي.

البيدقة الرابعة:

اشتغلت بالبيوت، وأكرمني الله بالعمل ببيت امرأة طيبة، كانت تلك العجوز مؤمنة بقضاء الله وقدره، تلك أستطيع أن أرى الجنة في عينيها، يقال أن المؤمنين يعرفون بعضهم البعض كما للمؤمن القدرة على استشعار غير المؤمن، أعلم أني لست على درجة كبيرة من الصلاح، لكني لم أذنب في حق أحد، مثلي يظلم و لا يظلم، مثلي يضرب و لا يدافع عن نفسه، مثلي لا شيء في عالم كله أشياء. أندثر كأول رياح تقضي على بقايا أثر أقدام على صحراء، أو موج يعلو فوق الرمال، أو رسم على الماء تفرقه الأمطار...هكذا أنا لست معقدة التركيبة لذلك يسهل تحللي في كل الأشياء.

كانت تلك المرأة تشتغل بالتدريس، وقد أحيلت على التقاعد، يؤسفني أن تحال ويحال من مثلها علما وخلقا للتقاعد المبكر، علمت أنها مصابة بمرض مزمن، بالقلب، هل من له قلب مثل قلبها يستحق أن تكون به علة؟ أم أن العلل تحب أن تسكن وتشقي القلوب الطيبة؟ أصبحت أخشى أن أكون طيبة و ألقى ما يصادفه الطيبون. كان علي أن أقطع معها مشاوير مهمة بحياتها قبل المرض وبعده. نعم كنت أحسها أما طيبة فهل غريزة الأمومة بقلبها العليل ما جعلها تعاملني هكذا؟ أم أننا نولد من بطون أمهاتنا أمهات، فنبدأ الدور لعبا وننتهي به جديا وصادقا؟ تعلمت على يديها رسم أبجديات اللغة. تعلمت على يديها كيف أنسج عالما من الأفكار الحية على الورق. تعلمت كيف أنظف مكتبتها الضخمة، وكيف أختار بعناية فائقة الكتب التي علي اقتناؤها لأجلها بل لأجلنا معا. فقد أصبحت مدمنة على عاداتها، الاهتمام بحديقتها الجميلة، إطعام العصافير، والقطة، تشغيل آلة الأسطوانات القديمة، كانت تصحو على موسيقاها. باخ أو ريشارد كلايدرمان أو تشايكوفستي...وأسماء أخرى لم أتعلم بعد كيف أسترجعها. كلها كانت تحسن الاستماع إليها، ارتشاف القهوة وتصفح الجرائد الصباحية، الاهتمام أكثر بالشؤون السياسية والتاريخية، العلمية والدينية. الثقافة الأدبية كانت

تشغل حيزا خاصا بحياتها ثم حياتنا معا. معها فهمت جيدا ما معنى أن تكون لك أم روحية، تلك كانت هي. لذلك أورثتني كل عاداتها. عندما كانت والدتي و أقصد أمي البيولوجية، تأتي لزيارتي لم تكن تهتم لضمي حتى استخلاص شوقها مني، أبدا تأتي لتأخذ أجرتي وتكرر على مسامعي أن والدي مريض. فعلا أبي مريض، بلاد وبلاد تفصلنا، وكان علي أن أترك والدتي الروحية لأذهب مع والدتي البيولوجية، مفارقة صعبة، لكن أبي البيولوجي والروحي معا يقف بالوسط، و لا يمكن أن أكون عاقة، يقع علي حمل العائلة وهذا واجب لا خيارات عندي في مسألته لأختارها، سوى أن أفعل.

البيدقة الخامسة:

ضممت والدي وحاولت أن أشم ريحه على بعد السنين التي ابتعدت عنه فيها، بل أبعدت قصرا، ضممته ولم أشتم سوى عطر الخمر و السجائر و القمار و الذكريات المؤلمة المخلصة، ورجل ينتظرني بالبيت كي يعقد قراني عليه، قيل سيؤمن لعائلتي حياة رغدة ومرتاحة، والمقابل أنا.

-كيف؟عفوا لم أفهم؟ هل يمكن أن توضحوا؟

زغردت أمي وقدمت الحلوى وبعض العصير الذي أحضر الضيف معه. ماذا يحسبونني فأرا سقط بمصيدة؟ لا. أنا لم أعب الرجل في شيء، و لا تربطني علاقة حب بأحد.لكن أن يتم تزويجي بهذا الشكل فأنا أرفض. كان حريا بوالدي أن يستفيدا من قصتهما و لا يبيعاني في سوق نخاسة، الزواج مؤسسة لابد أن يختار فيها الشريكين بعضهما عن تراض لا أن نساق كالخراف لعش أو سجن الزوجية حيث يوجد هناك جلاد ينتظر الضحية. لا أفكر بالزواج بشكل سلبي أبدا. ولا أتبنى فكرا يحرم الزواج ويعتبره استعباد للمرأة، أبدا. بل هو أجمل شراكة بين اثنين، من أجل تأسيس أسرة متناغمة تحيط بها المودة والرحمة من كل جانب، من أجل إنجاب الأبناء و توريثهم أحب وأجمل الصفات لتبقى الطفرة الجينية حية ،مستمرة،وخالدة بين الأجيال القادمة. لكن ما فعل ويفعل بهذا الشكل فهو قطعا ظلم، وهذا الزواج لا محالة باطل إن تم، فلا يتوفر فيه شرط إيجاب العروس. لا أقول أن أبوي ظالمين حاشا لله فهما حسب رؤيتهما للأمر قد أحسنا الاختيار لي،من أجل سعادتي. و لأنهما أدرى بمخلفات الحب الأعمى، كان لا بد أن يشغلا بصيرتهما جيدا. في تلك اللحظة فقط أدركت ندم أمي لأنها تزوجت عن حب، كما أبي. قالت لي وهي تحاول نصحي وإقناعي:"إن أحببتي يوما فمن الأفضل أن تبقي حبك سرا و لا تنتظري أن تحوليه لأجساد تتلامس، ففور الاعتراف ونزوح الرغبة لطياته يتلاشى ويتغير كل شيء. المودة والرحمة أمتن من هذا كله صدقيني". صدقتها نعم، لكن لِمَ لمْ تفهم بعد أن الزواج والحب لا تلامس

رغبتهما قلبي ؟ كان مني ما كان وأعلنت العصيان، وأدركت والدتي جيدا معنى المثل القائل: "كما تدين تدان". فما فعلته بالأمس ها أنا أعيده، وسوف تعيده ربما ابنتي بعدي وربما أختي قبلي. رحلت، وعدت لبيت السيدة، وسبحان الله بدأت الدنيا تعطيني ظهرها وتهوي على رأسي بالقباقيب. فقد توفيت بعد أيام من سفري ذلك ما أخبرتني به الجارة، كما أن أبناء إخوتها أحاطوا بكل شيء، حتى الحديقة والعصافير والأسطوانات الموسيقية، والكتب، و أبقوا على رحيلها،لم يبكوها، بل أنا من بكاها بكاء لم أبكه ولن أبكيه على أحد.

البيدقة السادسة:

تمنيت لو كان بإمكاني الاحتفاظ بالأشياء التي أحببناها معا، كي أستطيع أن أضمها لي كلما اشتقت إليها، أحمل معي صورة لها، ربما هي الذكرى الوحيدة المحببة لقلبي. لم أتوقع أن تصبح يوما ذكرى لكنها أصبحت. تلك الليلة لم أجد مكانا أبيت فيه فرجوت الجارة التي جمعتني بها أمي الروحية يوما، قائلة:" قد تنقلب عليك الأيام، فلا تترددي بطرق باب ل زينب".

زينب هاته امرأة في الخمسين و ربما أكثر، تشتغل مرشدة، تسافر كثيرا وتترك زوجها والأبناء، لم يكن يجوز لي البقاء لأكثر من يومين ريثما أدبر حالي، فهي سيدة أسفار وزوجها رجل ملتزم،لا يجوز لأجنبية أن تبقى ببيتهم في غياب الزوجة وأحيانا الأبناء. تعبت في تلك الثمانية والأربعين ساعة، بالكاد وجدت غرفة للكراء ببيت واسع، الظاهر أنه مخصص للطالبات وفتيات المصانع وأخر يمتهن الدعارة، تفاجأت عندما علمت ذلك عن شابات أصغر مني سنا، وأكثر جمالا وأوسع ثقافة. العمل وأي عمل محترم أو شبه محترم يلزم بشواهد و دبلومات، وأنا لا أمتلك ولا واحدة، أمتلك ما بقي راسخا في ذهني مما علمتني إياه أمي الروحية، أجيد ثلاثة لغات، أعزف الموسيقى، أتقن الطبخ، أفهم في الكيمياء والفلسفة وأحفظ الشعر،قرأت كل الكتب السماوية.

أجيد التنويم المغناطيسي وقليلا من التحليل النفسي.أفهم في الأدب و مضلعة في التاريخ وعلوم السياسة، على يقين أن أغلب من يمتلك تلك الشواهد العليا لا يمتلكون كل ما أمتلكه من علوم، لكني لا أمتلك الشهادة التي يمتلكونها، ولا سبيل لي لامتلاكها. علمت أنه من الضروري كي تكون لي بطاقة هوية فيما مضى يجب أن تكون بحوزتي عقود ولادة لكننا أصلا لا نمتلك حالة مدنية، تلك التي تحتوي رسما يثبت الأصل، يتخذ الرسم شكل حروف يبصم أحدهم على مصداقيتها. لا أبي يمتلكها و لا نحن سنمتلكها،

حتى نسخة من عقد قران أبوي غير موجودة فقد ارتبطا بالفاتحة والشهود وصحن كسكس*. و كانا يعتزمان على تقديمي هدية لذلك الرجل، لم أندم لأني رفضت ربما لو قبلت لكنت كل ليلة أدفع الثمن. لكن الآن ماذا سأفعل؟ فكل المهن أغلقت بابها على نفسها قائلة لي:"اتكلي على الله واذهبي بعيدا". نعم ذهبت وبكيت تلك الليلة طويلا حتى بللت وسادتي بالدمع، سمعتني إحدى بنات الليل التي تسكن بالغرفة المجاورة لي. فدخلت غرفتي دون طرق الباب، وضعت يدها على كتفي، و جذبتني لتضمني إليها، قائلة:"ابك ما استطعت".

* الكسكس:أكلة مغربية معروفة تعد يوم الجمعة في كل دار مغربية كما تقدم في المناسبات كطبق من الأطباق الرسمية.

البيدقة السابعة:

بكيت بكيت وبكيت، بكيت على أمسي، على يومي ،بكيت على تلك التي حضنتني فحالها أسوء من حالي، حتى جف حلقي،فقدمت لي كوب ماء.

و حكيت، حتى ما تبقى لي غير الصمت ليحكي الباقي مني.ونمت، بعدما أغلقت النور وفتحت لها شباك حياتي وباب قلبي. لم أرها تلك الليلة ولا تلك التي بعدها، فحسبتها طيفا جاءني من اللامكان ليخفف عني أعباء الحياة التي تلفني. اعتزمت تلك الليلة أن أجمع أغراضي وأسافر لمدينة أخرى صناعية، لعل الحظ يسعفني للعثور على عمل. وأنا أجمع الأغراض عاد الطيف الذي زارني قبل أيام، ما أجملها،عيونها العسلية النجلاء تخفف وجع القلوب، بشرتها حنطية مائلة للبياض، شفتها دقيقتين ورديتين، شعرها البني يذكرني بخليط الحليب وبودرة الكاكاو، قدها المليح الممشوق المتوازن، صوتها العذب، ملابسها الملعونة التي تبرز فتنة الخطيئة الثالثة للمرأة. تعشق الروج الأحمر، والفساتين الداكنة الألوان، تصفف شعرها متبعة موضة الستينات، علمت أنها تؤمن بالمثل القائل:"زوق تبيع"*، ولابد أن تتبرج لتسويق جسدها

وربح المزيد. قالت لي بعدما أصبحنا صديقتين أنها تمتلك ما يقتني لها شقة

في حي محترم وسيارة، ربما في يوم ما ستركل كرة هاته الحياة، لتقتني ملعبا خاصا تكون فيه هي الحياة نفسها، ستمارس الغش والرذيلة حتى تمتلك ما تعلن بعده توبة نصوح. ليس الآن أكيد. أخيرا أخبرتني بما يسرني،أنها عثرت لي على عمل، فرحت قلت هي تعلم ما أطمح إليه،ربما تكون

* زوق تبيع:مثل مغربي مرتبط بمجال التجارة إذ من أساسيات الترويج للبضاعة إظهار محاسنها للزبناء.

سببا للوصول إليه، لكنها فاجأتني عندما قالت لي أن العمل سيكون بنفس الحانة التي تشتغل بها، سأعزف الموسيقى وأحيانا سأغني. ولن يمسني أذى فصاحب الحانة صديقها ورب عملها. طلبت مني أن أنسى المعرفة التي أخزن بذهني ولا أذكرها لأحد،لأنها قد تجر عليّ بلاء خصوصا في ذلك المكان الذي تعقد فيه أكبر الصفقات،وتلغى فيه أخرى، تتخذ فيه قرارات تغير الكثير وأخرى تهدم أكثر. فكرت ولم يكن هنالك سبب للتفكير،أخذتني لغرفتها،وأخرجت قطع قماش في لون الغروب وأخرى في لون الشروق و أخرى تتمايل بين الأرجوان و الأخضر، وقالت لي الأخضر سيليق بك أكثر، يتناسب مع لون عينيك وسواد شعرك، ستبدين رائعة به مع القليل من التبرج و الحلي التي سأختار لك. لا أدري حقا كيف تحولت لدمية بين يديها. أتذكر قبل سنوات طوال كيف كنت لا أجد شيئا أستر به نفسي، كيف تمطر والمياه تجتاح بيتنا الصفيحي، كيف كنا نتبلل و لا نجد ما نغير به ملابسنا الرثة، كيف كنت أمزق تلك الأثواب التي يتصدق بها علينا المحسنون لأصنع بها جوارب لي، والباقي من الثوب أزين به كسوة لدميتي، تلك الدمية العابسة مثل الكثير من الأطفال.كهول في أجسام الأطفال. لم أنعم بالقليل من الراحة إلا في بيت أمي الروحية، هي التي علمتني ما لم أعلمه،وربتني كما يجب أن تربيني والدتي البيولوجية، لكنها كانت صفحة انقضى عمرها لأعود لنقطة الصفر الأولى. فقط في المرحلة الأولى كانت لي عائلة و الآن...نظرت إلى نفسي بالمرآة،صدقا لم أكن أعلم أني على هذا القدر من الجمال...هذا ما قالته صديقتي الجديدة.

البيدقة الثامنة:

أول مـرة تطـأ قـدمي بـارا، أول مـرة أتخطى بخـار ودخـان السـجائر والأجساد، هناك فقط يصبح جسد المرأة السيد، والمال يهب عليها متوسلا لتلبي رغبات سيده. السيادة هناك خالية من منطق العقل و الانضباط. التقيت هنالك بصاحب البار، رجل أربعيني تظهر عليه النعمة، لبق، أنيق، وسيم. قبل يدي كما أشاهد في الأفلام والمسلسلات، دخلنا مكتبه، حدثني عن مؤهلاتي العلمية من جديد، لم أشأ أن أقول ما حصلت عليه من معرفة دون ولوج أسلاك الدراسة، عملا بوصية دنيزاد كما هي ملقبة بالبار. و قد أطلقت علي لقب:شهرزاد، لست أدري هل كانت تنتظر مني أن أخلص الرجال الذين يرتادون الملهى من عقدة الخيانة والسكر والعربدة والفجور. لست أدري؟ وعملا بوصيتها آثرت ألا أجيب وأترك لها حيزا لتجيبه:

-مستواها الدراسي ستعرفه بعد الاستماع إليها ولعزفها الساحر.

بماذا تهذين يا دنيزاد؟ هل كل هاته ثقة في؟ لست أدري فهي لم ترني أحمل عودا ولا أجلس على كرسي آلة بيانو. فقط يتسرب لمسامعها صوت مواويلي التي أطلق العنان لها ليلا كلما شعرت بالوحدة والألم والعجز عن المضي. لم ينبس صاحب المكان ببنت شفة فقط قال:

-عموما صديقتك شهرزاد تحمل أوصاف السحر والجمال، ولابد أن تعزف لنا الليلة ما ستطرب له مسامعنا، فإن نجحت بالاختبار فهو كذلك، وإن لم تنجح نرى لها ما يليق بهذا الجسد الجميل.

هل أنتفض؟ هل أحتج؟ لا يمكنني فعل ذلك. أصبحت محصورة بخانات الحياة السوداء ولا أقدر على القفز للمساحات البيضاء لأتحرر مما أنا فيه. مضيت وطلبت من السيد كما يسمونه، ألا يقدمني، سأعزف في غفلة من الناس، لأرى إن كان ما أنا سيصلهم إلى حيث هم. جلست بالساحة التي لا

تليق فعلا لذلك الفن، الفن تاريخ مقدس يحكي حضارة وتحضر الشعوب وهذا مكان للرذيلة والفحش. لا بأس سأعزف.

البيدقة التاسعة:

أمطرت زخات الموسيقى على تلك العقول الشاردة،استحضرتها كالأرواح الهاربة، لجلسة علاجية، وعزفت،عزفت بحمقي،بجنوني،بتعقلي،بلهفتي، بشوقي،بترددي،برزانتي،بنفسي،بجسدي،بروحي،بكل شيء،بلا شيء.

حتى فتحت عيني ووجدتهم معي يتابعون كل نوته موسيقية على حدا، صفقوا لي، وبكى البعض مستخرجا كل تلك الشوائب العالقة بالنفوس، علمت حينها أنهم بشر عاديون، وبأن الهموم والأفكار الضالة هي التي رافقتهم لهذا المكان.

بدأت أرتاد البار كل ليلة لأعزف وأغني، أصبحت تلك الآن مهنتي التي أعيش منها.اقترحت على دنيزاد أن نكتري شقة تكون أريح لنا، وأكثر أمانا. وافقتني لم نحتج لأن نبحث طويلا، فعندما يتوفر المال يمكن توفر كل الماديات معه، أما الروح اندثرت، الله أعلم كيف وأين؟ أعيش بصلابة ودون مشاعر، دنيزاد تبيع جسدها وأنا أبيع فني.

مرة سألت دنيزاد عمَّ جاء بها لهذا المكان؟ و عندما تكون أول إجابات النساء دموع أعلم أنه تم التغرير بهن أو سلبهن شيئا لم يكن لهن أن يحمينه. دنيزاد والتي هي تحمل اسم نجمة بالسماء:"سهيلة"، سافرت لتحل ضيفة بمنزل خالتها من أجل متابعة دراستها إذ تقطن بمدينة لا جامعة بها، هنالك تم اغتصابها من طرف زوج خالتها، اغتصبت وبقيت صامتة وإن كان الدمع لا يكتم نفسه بمكر في عينيها،بل ينزل ببراءة على خديها، قالت لي أنها كانت متفوقة بشعبة الفيزياء، وكانت تناظر أساتذتها فتهزمهم، لم تنه دراستها بل غادرت الجامعة بعد شهور معدودة، فقد انقطع الطمث واشتدت صلابة البطن، وتهديد زوج الخالة مستمر ومتكرر، هل تفضحه أم تفضح نفسها؟ هكذا هربت وتركت الناس يظنون بها الظنون، لم يكن لديها خيار تقول، أجهضت على يدي سيدة تبيع الهوى، وهي نفسها من عرفتها على صاحب

البار:"السيد"، أما بائعة الهوى تلك فصادفتها بالمحطة وهي تبحث عن مدينة لا توجد على كوكب الأرض،كي لا تتابع ولا يعرفها أحد. حتى بطاقة هويتها غيرت معالمها...لا تريد العودة للوراء هذا ما قالته، وهي مدركة أن زوجة أبيها سعيدة بقرارها هذا،فهي يتيمة ووحيدة أمها، لكنها ليست وحيدة أبيها، له من البنين ما سيسد فراغها. وأصبحت الأيام تمضي على ما هي عليه من منوال.

البيدقة العاشرة:

كيف تغيرت أحوال الناس؟ نحن لولا أننا نبيع الجسد والفن فبما نعيش؟ يقال إن رأيت فقيرا معدما يتألم فاعلم أن هنالك غنيا أخذ ماله، أما الرزق فوحده بيد الله، نعم فهمت المعنى المراد،عندما بدأت أشتغل عازفة موسيقى بهذا البار، وحده مدرسة من نوع فريد،من فروع الحياة وتخصصاتها. حدثتني دنيزاد عن كل أولئك الزبائن الذين يرتادون البار، حدثتني عن رجل يبدو عليه الوقار، وهو داخل لعين المكان وعندما يخرج منه قبيل الفجر، يصبح غير من جاء، كل ذلك البريستيج يتبخر بعد قوارير الخمر، تلك التي يحتسيها دفعات متتالية، لم يكن يأتي ليعاشر النساء، بل فقط ليشرب ويجالس إحداهن تثرثر وتمضغ العلكة، وتضحك بشكل صاخب، وأحيانا تبكي. علمت فيما بعد أنهما صديقين مقربين،تمتلك أسرار الكثير من مرضاه النفسانيين الذين يرتادون قسمه، وهم من أبرز الشخصيات السياسية التي أعرفها وأشاهدها على التلفاز وأخر تبقى مستظلة بالخفاء، استغربت كيف لهذا الرجل المتعب أن عالج من هم أقل منه بلاء وابتلاء و تعبا، يقال أن ما غير التزامه وانضباطه نوع من العجز الذي يعاني من وطأته، وحتى الطب النفسي أو الروحاني لم يستطع فك عقدته، يقال أن طليقته كانت ترتاد بيت فقيه يهودي، معروف ب:"دقه لي مكتعاودش"(أي عمله متقن وله فعاليته)، ولسوء حظه توفي الفقيه ومات معه سر العمل. أقسمت باليمين طليقته ألا تتركه بعدها لغيرها. ففعلت ما فعلته، هل هي سعيدة بذلك الله وحده يعلم، لابد أنها يوما ما ستحصد ما زرعته،كانت تحسب أن زوجها الطبيب على علاقة حب بمريضة تخضع لحصص علاجية، لابد أن هذا ادعاء وإلا لكان أغلق المستشفى، وتفرغ لها، لابد أن عقول النساء أحيانا تضخم الأمور، فما يجعل طبيبا بمستواه العلمي ومركزه القوي وزبائنه الذين يحملون ألقابا تزن الذهب، والبلد. يفعل هذا؟ لا أدري، وما أراه منه الآن هو جزء من حقيقته،لا بد أن ما تحكيه دنيزاد

صحيح، الغريب أن أولئك الذين يسرقون رغيفنا،تقتطع من مكاسبهم الغير المشروعة ضريبة من راحة الضمير و الاطمئنان والسعادة، لا يفهمون لما تضيق عليهم أنفسهم والدنيا بما فيها، ويخافون كثيرا لدرجة استخدام حراس شخصيين، لو عدلوا لأمنوا ولناموا بأي مكان شاءوا. هنالك أيضا بعض النسوة المعروفات جدا، يأتين متنكرات كي لا يعرفن، أصلا هنالك العقول تغيب فمن سيتذكرها وإن تذكرها فلن يضربها بالحجر وبيته من زجاج، ينسى كل شيء، فالنهار يمحو الليل والليل يمحوه النهار وتستمر دورانية هذا الكوكب، والمزاد كل ليلة يعود لبداياته،لإضرام حروب الشهوة وإخمادها عند بداية النهار، أستغرب كم هم أشباه مصاصي دماء، يتغيرون من أجل شربة دم، ثم يرجعون لبشريتهم ولا تختفي رغم ذلك أنيابهم، فهمت من تمحوراتهم المتقلبة أنهم ذئاب يرتدون أقنعة وملابس بشرية، بدلات أنيقة وربطات عنق، وقمصان مكوية، أحذية لامعة، ورؤوس فارغة إلا من ضباب.

البيدقة الحادية عشرة:

صديقتي دنيزاد، أصبحت مريضة جدا، تتردد عليها الحمى بأوجاعها وسهادها كل ليلة ،الرشح مستمر، آلام حادة بالجسم،التعب،... عزمت على أخذها للطبيب من أجل إعطائها بعض المسكنات فكل ما قدمه لي الصيدلاني لم يفدها بشيء.رغم رفضها المتكرر. تلك البثور بدأت تلقي بنفسها خارج جسدها، الحمى لا تنخفض، الألم المتكرر،التعب، الإرهاق، لا أدري لماذا انتبهت لشيء لم تفكر فيه هي، وكم حذرتها منه،لم يكن علي أن أسبق الأحداث قبل استشارة الطبيب، تحدثت إليه خفية عنها، فطالبها بفحوص وكشوف...وكان ما كان وفعلا دنيزاد ما عاد لها من الدنيا إلا ما قد زاد، مصابة بفيروس الإيدز وقد تأخرنا في علاجه لتأخر علاماته. أصبحت ملزمة أنا الأخرى بإجراء فحوصات، فعمر المرض بجسد صديقتي طويل، ولم تبد عليها العلامات إلا مؤخرا، أخبرني الطبيب بعدما تأكد من سلامتي من الفيروس، أنه علي أن أبقى أكثر حذرا من خطورة انتقال المرض عبر الدم، باستعمال نفس الآلات الحادة التي قد تستعملها،كالإبر أو ما شابه والتي تنقل الدم، حذرها من الدخول في أي علاقة جنسية كاملة، فقد تنقل الفيروس لغيرها، العلاج الذي نمتلك بين أيدينا الآن هو الدعاء وبعض المسكنات...وبعض الأدوية التي ستساعد الجسم على مقاومة الفيروسات الدخيلة.

لم أكن أتوقع أن مثل هذا الجسد الشاب و القلب الطيب سيعانيان، ألم أقل أن القلوب الطيبة تعاني كثيرا، و تتوجع في الخفاء؟ أصبحت مضطرة للبحث عن عمل آخر، فتكاليف علاج صديقتي باهظة القدر، وحتى الجمعيات لا تقدم يد العون لبائعة هوى. سيسألون عنها ويعرفون أنها دنيزاد وليست سهيلة، ولكن من سأل عنها قبل أعوام أين اختفت؟ ولماذا اختفت؟ هل سيقاضون زوج خالتها؟أم سيقولون أنه منزه وهي تتهمه لتفلت حبيبها من جريمته، أو سيقولون هي من غررت به بملابسها الكاشفة وفتنتها

الطافحة؟عموما لا أحد سيسأل عنها، سيقاضونها سواء أكانت ظالمة أو مظلومة. وحدها الجلاد والمجلود، وحدها الصفعة والخد والكف والدمعة، تجسد في مسرحية درامية فصولا حدادية لقصة اسمها:"دنيزاد و سهيلة".

بدأت علامات الايدز تخفي نفسها بين جوانحها وعلمت أن المرض والجسد في صراع داخلها وهي تبتسم في وجهي، وتقول لي:"رب أخ لم تنجبه لك أمك، لو أن أمي على قيد الحياة؟".

و بكت، ماذا يا صديقتي حتى لو كانت على قيد الحياة، هل كانت لتمنع زوج خالتك من ارتكاب جريمته؟ هل كانت لتمنع ما كان مكتوبا على جبينك أن تراه عينيك؟ الحمد لله أنها توفيت، حتى لا ترى في حياتها يوما أسود من أيامك يا صديقتي، لقد قضت وأعلم أن الموت يختطف من نحبهم لكن ربما كان خيرا، فلو بقيت لرأيتها عليك تموت كل لحظة ألفا.

البيدقة الثانية عشرة:

جعلتني تلك الأيام أتذكر عائلتي التي نسيتني أو تناسنتي، دون أن أقوم بأي واحد من كلا الفعلين النسيان أو التناسي، كلما أسدلت رأسي على الوسادة أرى ظل والدي يحميني من أشعة الشمس اللافحة في فصل الصيف، يغطيني ليلا من قسوة البرد، ويبقى طوال الليل بدون غطاء، يوقد النار لنستدفئ ونجفف ملابسنا التي على ظهورنا، وعندما يستفيق بمنتصف الليل، ليراقبنا بحذر من بعيد، يحاول عبثا أن يبعث من روحه في ذلك الرماد، لعله يرتد للحياة فتظهر حمرة بعض الجمرات، ثم تنطفئ بعدما بعثت في نفسه القليل من الاطمئنان والأمن من البرد اللافح. طيب رغم كل شيء. ترى كيف حاله الآن؟ كيف هي والدتي؟ هل كبر صلاح و مليكة ومحمد؟ لست أدري؟ أفكر أحيانا بالعودة للبحث عنهم، لكنه ملعون علي، و لا تحل لي العودة لهم. ربما ما عاد هنالك من قربان سيشفع لي، لعله المال؟ لكن نحن الآن في أشد الحالات ضيقا وحرجا،...وبقيت دوامة التفكير تعيد نفسها ككل ليلة منذ فارقتهم، و ما عادت لي طاقة بشأن هذا الضياع. ربي أجرني عندك فقد تعبت من جور وظلم وقهر العباد. لست أدري ما حل بي تلك الليلة حتى نمت، والدمعة ترسم دربها على خدي، فرأيت والدي، يرتدي بردة بيضاء طويلة ورثها عن أجداده، تغطي كل جسده، لست أدري لماذا كان من صدره يخرج دخان كثيف...احترت في أمر الحلم، حتى صحوت فزعة باكية، استفاقت دنيزاد من وقع هذياني وصرختي وبكائي، لتسألني دون أن تضمني كعادتها خوفا من أن تنقل لي العدوى، لكني ضممتها،وماذا بعد؟ لا شيء ولا أحد سأعيش لأجله، سألتني:

-أهو كابوس؟

-لا يا صديقتي؟ بل أحسبه شيئا آخر.

-فما يكون؟

-رؤيا.

قصصت عليها حلمي أو رؤيتي لا أدري؟ لم تنبس ببنت شفة فقد فهمت ما فهمته، لكنها طمأنتني دون أن توقظ الكلام النائم بدواخلنا. لا أدري لماذا دائما يغادرنا كل الذين نحبهم هكذا دون سابق إنذار. في الصبح استفقت باكرا وفي الحقيقة لم أنم البتة، بقي بالي مشغولا من أثر ما رأيته، خشيت أن يكون هنالك مكروه ما قد أصاب عائلتي، لم أفكر فيهم من قبل بنفس الحدة المرفقة بالتوتر، قلبي لا يخطئ هذا أمر متأكدة منه.

البيدقة الثالثة عشرة:

ومرت الأيام، و السنون، تلو السنون. أعيش شبه وحيدة، تلاشى ربيع العمر الذي لم يكن فصلا من فصولها يوما، اعتدت زيارة المقبرة كل جمعة باكرا، كانت دنيزاد تحب الورود بحياتها، ووعدت كما طلبت أن أزين قبرها بألوان الورود المتواجدة بكل فصل، غاليتي كانت تعشق الطبيعة وكم كنا نرتادها معا، متى فكرنا في الخلوة البعيدة عن الناس.

أحتفظ بجناح خاص في منزلنا بعصفورين جميلين لونهما يميل للأخضر والأرجواني، مزعجان جدا، يثرثران أكثر منها ومني...كنا فعلا ثرثارتين ولا يتوقف الكلام بيننا، إلا إن حل الدمع بديلا عنه. تألمت كثيرا عندما زرت عائلتي بعد زمن طويل من البحث عنهم، فقد رحلوا تاركين مدينتنا ميدلت لمكان أبعد من كل بلاد، توفي والدي بسبب سرطان الرئة، فهمت جيدا حينها مغزى الحلم والدخان المنبعث من صدره، فهمت أن البردة البيضاء كفنه الذي حمل بعده على النعش، ثم للقبر، جعل الله تعالى قبره روضة من رياض الجنة، غفر الله لهما معا،أقصد والدي و دنيزاد.

أما أمي فوجدتها بدار للعجزة، تألمت كثيرا عندما وجدتها هناك، أخذتها معي وهي تعيش وأعيش على بركة دعائها. أما مليكة شقيقتي الصغرى فقد زوجوها لنفس الرجل الذي رفضته قبل سنين، ولهما من الأبناء ما يملأ ملعب كرة، لا تحبه أعلم هذا، وهو يخونها أعلم و تعلم هذا، لكنها مقتنعة أنه رجل و آخر يومه يأوي بيته وفراشها، تعيش سعيدة لأنها لم تأخذ نفس العلم والمعرفة التي أخذت وشقيت بهما طويلا، أحيانا العلم و العقل يصبحان سجن وسجان صاحبهما،إن لم يحالفه الحظ بمجابهة قسوة الحياة. صلاح كبر والتحق بالتجنيد، لست أدري كيف ترك الجندية هنا، وذهب أثناء اندلاع الثورة السورية لحماية المدنيين، الذين يقتلون هنالك بالألوف، وينزل عليهم وابل الرصاص كالمطر فيدوس على الأخضر واليابس من الأعمار، لا أدري هل هو سعيد أم لا...؟ لكنه يتصل مرات متباينة، فكثيرا

ما يصعب عليهم التواصل بالعالم الخارجي، هذا ما يقوله لأمي ليبرر انقطاع أخباره، أما ما أعيه فالحقيقة أني لا أستوعب شيئا. أما محمد وهو أكبر من صلاح و مليكة وأصغر مني، فلم يتمكن من متابعة دراسته، بسبب انقطاع المورد المادي المنبعث من عملي بالبيوت، هاجر للعمل بإسبانيا، ركب قوارب الموت، قاطعا البحر من مدينة طنجة إلى بطن الحوت أو إلى إسبانيا أو فرنسا لست أدري؟ لازلت أبحث عنهم،و أزور قبر والدي كلما زرت ميدلت، وأقتني الحلويات لأطفال مليكة، و أأمن على دعوات أمي التي تصلي كل يوم لعل محمدا يرجع وصلاحا يصلها منه أو حتى عنه خبر. وكلما مررت بتلك المدينة أزور قبر أمي الروحية، وأقرأ لها شيئا من الأشياء التي تحب أن تعرفها، أعلم أنها تستمع إلي ولا تملك أن تحادثني، و ما يهمها هو حالها بتلك الدار وما قد أقدمه من دعوات صادقة.

البيدقة الرابعة عشرة:

كيف أعيش؟ علم صاحب الحانة:"السيد"، بمرض دنيزاد، والحقيقة أنه طردني من العمل، قولا أن الزبائن إن سمعوا شيئا عن مرضها فلن يرجعوا، قلت له في شجار عنيف و مشادات كلامية دارت بيننا ، ليس من أجل الاحتفاظ بعملي،لا.

ولكن لأنه أساء لمن وهبت صحتها وسلامتها وجسدها لهذا السيد، ليستعبده ويبيعه لكل مرتاد يطلبها...

تركت المكان ودارت عليه الأيام وأغلق البار بعدما أعلن صاحبه إفلاسه لكثرة الديون المترتبة عليه، حمدا لله أننا لم نبق حتى لا يتهمنا بخراب عيشه ،دعوة المظلوم أصابته وما أخطأته، وأكرمني الله بنفس الطبيب النفسي الذي كان يرتاد البار. كنت وصديقتي نزوره، طلبنا عونه. بعدما لاحظ غياب الصوت الغنائي الشجي والعزف الملائكي النقي، بحث عنا حتى وجد كلينا. بالبداية كان واجب الزبونية ما قربه لنا، ثم واجبه كطبيب فقد كانت صديقتي تُعَالَج عنده بعدما أخذ منها المرض مأخذه وحتى مني.

تلك الحصص بيننا تحولت لصداقة طيبة. لم يعد يرتاد البار ولا أنا ولا دنيزاد، حتى غادرتنا..بكينا ولبسنا ثوب الحداد أشهرا وحزنا عاما وعدنا لممارسة حياتنا الطبيعية، تفاجأت يوم عرض علي الدكتور الارتباط.

-كيف؟ أنا، لما ....؟

لم يخطر ببالي أبدا أنه عاجز جنسيا كما تناقلت الأفواه كذبا وبهتانا أو صدقا صادقا؟ لست أدري؟ لكن طبيبا مثله سيفكر في سيدة مجتمع مثله. قال لي:

-لا تقارني نفسك بأحد، ففيك تجتمع كل النساء.

و ذهـب، لحقـت بـه، دون أن أنطـق بـالأحرف مـوافقتي، فهـم جـوابي، وتزوجنا. أعلم أنه لا وثائق كاملة للارتباط به. لكننا تزوجنا بشكل جد تقليدي يضـاهي تحضـره، اثنـا عشـر شـاهدا، و:"عـدول" *، وزغـردت لنـا النجـوم. بعـد ذلك كان لزاما أن نهيئ الأوراق الرسـمية، كنـت مضـطرة للعـودة لبلادي نقطـة ومكان الصفر،العائلة. تجدد الألم وعاد الحزن فور تخطي أعتاب المدينة.

لكنه كان مقدرا لي كل ذلك...أصبحت أما بسـرعة لم يكن عـاجزا جنسـيا كما قيل لي، فقـط أكاذيب روجت حولـه، لتسـوء سـمعته انتقاما وحسـب، هـو أيضـا تـزوج بي انتقامـا مـن طليقتـه لكنـه أحبني فيمـا بعـد و أحـب أبناءنـا.و أحببته دون حدود. ما أطول المسـافات والأشـواط التي قطعت، كل شيء كان مقدرا، وكان قـدري مليئا بـالنجوم التي تملأ سـمائي كل ليلـة أراقبها على بعـدها تسـكن بقلبي، تتسـاوى في بعـدها: أبي، أمـي الروحيـة، دنيزاد،أمي، محمـد، صلاح،...كلهم رحلوا...ويسكنون بعيدا لكنهم هنا بقلبي.

* العدول:موثق عقود الزواج و هو الذي يعقد قران العريسين

البيدقة الخامسة عشرة:

فقط في السماء تتساوى الكائنات، كل النجوم تبدوا على منحى وبعد واحد ولا أفضلية لهاته عن تلك، كنت اعلم أن الناس عندما يموتون يتركون أجسادهم ليرتقوا إلى السماء، والسماء فيها الجنة والنار، فيها كل شيء يغيب ويحضر في عقل طفلة صغيرة مثلي، تلك الطفلة لا تزال تسكنني ومن المحال أن تفارقني، طفلة سنوات عمرها تتساوى و سني عمر الكهول.

عدت بخفي حنين

على غير العادة تفاجئنا الأشياء، تطرق الأبواب الموصدة لعل تلك الذكريات الراكضة التي نهرب منها تستفيق لتعلن ثورة جديدة تغير منحى الأمور في حياتنا. لا أدري كيف حدث أن ركبت مشاعري طائرة من دون طيار، ساقتني في رحلة قصيرة شكلت نقطة تحول في حياتي بعدما هبطت هبوطا اضطراريا، على أرض استنزفت كل مشاعري الراكدة بدموية بشعة، حبلى بالمأساة.

كان لزاما علي كما عدد من المجازين العاطلين تعبئة طلب الترشيح من أجل اجتياز اختبارات الولوج للمراكز تكوين أساتذة تعليم الابتدائي، الإعدادي والثانوي. بالبداية احترت أيها أختار، هل ألعب القمار ببيادق المسالك الثلاث، وأيها رمى به الحظ أختاره، لكن الأمر يحتاج للتفكير، الخصاص في الابتدائي أكثر بكثير بالمقارنة مع المسلكين الأخريين، لكن كيف أحل المعادلات و النظمات، كيف سأبرهن على حل مسائل لا أجيدها، كيف سأتحدث عن تفاعلات كيميائية وأخرى مرتبطة بعلوم الحياة والأرض؟ لست أدري لماذا يحقنوننا بمضاد واحد لن يكون نافعا للمقاومة أمام هجمات الحياة المتطلبة، وهم فيها المتطلبون قولا أن الجامعة والمدارس العليا تتخرج منها تخصصات لا طائل منها ولا دور لها في الدفع بعجلة هذا السوق الواسع العريض لاقتصاد البلاد. حتى الناجحون بنيل تلك المقاعد عن جدارة واستحقاق أو حتى اقتنائها دون عناء، يزج بالمدرس للسجن الأسوار العالية فيه جبال، يرتد له صدى صوته إذا ما اشتكى لتلك الآذان الصماء وعورة السبل لتلك الحجر التي تنزف عيونا وأنهار إذا ما حل فصل الرعد والبرق و الأمطار ، ذلك الفصل الذي يمتد أضعاف نصيبه بين فصول الأحوال.

ركبت الحافلة ذلك الصباح وبعدما كانت وجهتي تطوان-طنجة *،أصبحت مكناس،لا أدري كيف اتخذت قرار الاستمرار بالبطالة بعدما عبئت ورقة الترشيح بكل ما يلزمني لإجراء اختبارات الالتحاق بالسلك الثانوي، المقاعد محدودة جدا في الخمسة والعشرين. اتخذتها مقامرة بشيء لا أمتلكه، وذهبت للمركز مشيا على الأقدام بعدما تعذر علي إيجاد سيارة أجرة، فالشمس تتوسط كبد السماء، مشيرة للظهيرة. كنت ضائعة ولا أشعر بالانتماء لأي مكان، أحسست أني محتاجة للتيه حتى أجد لي مكانا يشبهني، ذهبت مشيا للوجهة التي أبتغي وهناك صادفت تلك الأعداد الهائلة من المترشحين، والتي لابد تتكرر كل يوم حتى الموعد الأخير للترشيح،بل تتكرر كل عام مع زيادة في نسبة المترشحين المتخرجين الجدد.

بينما كنا ننتظر وصول أدوارنا في صف خاص بالإناث و آخر بالذكور، من أجل الدخول لوضع ملفات الترشيح نشب خلاف بين الشباب بسبب سوء التنظيم،في الحين الذي كنا نلتزم فيه الصمت وعدم الحراك، تعبت نون النسوة من مكابدة قسوة الحياة، وهذا ظاهر في صفنا السلمي الذي يمشي في صمت وكأننا نحمل شواهدنا على نعوش من الملفات، صفر و خضر و زرق زاهية الألوان إلى مثواها الأخير. انتهى كل شيء ورحلنا..وكنت على يقين أني سأرجع بخفي حنين.

أعلنت النتائج على بعد أيام من الترشيح، مهزلة غير منصفة تلك التي أقصوا فيها الكثيرين بمعايير غير موجودة و بمساطر مجحفة تكرس للطبقية...لنا الله يا حنين.

* تطوان و طنجة: مدينتين تقعان بشمال المغرب

وعود رجل

عرفت قبل أيام أني أشد النساء بلادة، وأكثرهن حمقا.جنت علي طيبتي و سذاجتي المفرطتين،وها أنا ذا اليوم أدفع الثمن غاليا. تأخر الطمث للشهر الثاني .بدأ بطني يشتد صلابة وينتفخ يوما بعد يوم.أشعر برغبة شديدة بالقيء ،والغثيان يجعلني دوما مقعدة في الفراش.كنت أكابر، لم أتوقع أبدا أني حامل في الأشهر الأولى.أخبرته بمخاوفي وقال لي باتهام مس شرفي :

-تحملي مسؤولية الجنين بنفسك أعلمك من الآن أني غير مسؤول عنه.

صدمني موقفه بعد سلسلة العشق تلك التي كانت تجمعنا وتلاقينا فواصل صغيرة بين محطات مقطوفة من شجرة الزمن.كنا نقضي معا وقتا رائعا لا يقدر بثمن.في تلك الليلة أجبرني على كل شيء ولأن الحب كان يعميه ويعميني من حين لحين أبصره بما قد يقع، كان يقول:

-لا تخافي لن أتخلى عنك يا أم محمد.

كان كلامه المعسول اعترافات بحبه لي .لكن عند ساعة الجد قال لي بكل برود وأنا أحدثه حول مخاوفي ونتائج خطيئتنا وعن ما يمكن أن أواجهه مع العائلة:

- انسيني وعيشي حياتك مع عائلتك أو بدونها ليس الشأن شأني.

تبددت تلك الصورة المثالية التي كنت أرسم له في دقائق معدودات.أعوام من الحب المثالي المقدس، تبددت في أقصر مدة.ليتخلص مني ومن ثقلي بكلماته الظالمة المعذبة. لن أسامح نفسي أبد الدهر لأني وثقت به وجعلته أقرب من نفسي لي وأحب من أعز الناس لي.

في هاته الأسابيع الأخيرة تغيرت نظرتي الاعتباطية والسطحية لكل شيء.أصبحت أتمعن في أدق تفاصيل بيتنا.أجمع الذكريات بحقائب الرحيل.

أكثر ما كان يشدني هي تلك التفاصيل التي تركها الزمان بوجهي أبي وأمي وهما يسهران على تربيتي أحسن تربية وعلى تعليمي أحسن تعليم.يحرمان نفسيهما من كل شيء لأجلي، وبماذا كافأتهما؟ بدفن وجههما في التراب؟ يا ويلي ماذا اقترفت بحق نفسي وأهلي ! دمرت مستقبلي بيدي هاتين، عندما صدقت وعودا كاذبة لرجل يتقن فن الإغواء.

الرحيل هو الحل وهذا الجنين لن أسقطه سأنجبه وأتحمل مسؤوليته كاملة وأعلمه كيف يحترم المرأة ويحفظ حقوقها بالمجتمع. سأجعل منه قائدا سياسيا محنكا، يستحق فعلا أن يبقى على قيد الحياة في أجندة التاريخ.أخطأت مرة ولن أكرر خطئي مرة أخرى.

زواج تقليدي

"أجمل شيء من الممكن أن يمتلكه

الإنسان هو الذكريات

حيث يسترجع أجمل اللحظات

وهو يغط في

استيقاظ عميق".

تتسلل تلك الدمعة التي أحاول قصرا إخفاءها، تتسلل كجرعة الماء على خدي، فتكشف عمق حزني وقلة حيلتي. أتعب كثيرا والدمعة تجر الدمعات وأغرق نفسي في بحور من الذكرى المريرة التي كانت أسعد اللحظات وأنا أعيشها.

الآن أنا وحيدة بعد أن تركت يدي ورحلت.تركت يدي عندما حاولت أولى الموجات إغراقي. ناديتك وسمعت ندائي ونظرت إلي نظرة قهرتني، وستقهرني لما بقي لي من العمر.لست أدري ما ذنبي هل لأني أحببت بغباء؟ هل هاته جريمتي،أني صدقتك؟ ما علمت يوما أن الحب جريمة وان كانت الطريقة التي جاء بها خاطئة إلا أننا كافيان معا لنصلحه ونجعله يتبع ملتنا.

لم نتعارف بشكل عصري.فقد تقدم لخطبتي دون حتى أن يحاول معرفة رأيي به. تحكي جارتنا أنه كلفها بأن تجد له فتاة تكون "بنت دارهم" جميلة مؤدبة. فاقترحتني عليه.كاد يطير فرحا عندما قبلت به رغم أن عائلتي لم تقبل،فقط لأنه أسود البشرة وأنا بيضاء.لأنه ليس وسيما. وأنا جميلة.

حقيقة لم تتحرك مشاعري اتجاهه يوما ، كنت أبحث فقط عن سبب أتخلص معه من حبل تلفني به عائلتي. تخنقني وتمنعني من كل شيء حتى الدراسة التي كنت بها مجدة. أتمنى الكثير من المرات لو أن لي نفس ظروف جارتي لدرست وتفوقت. والدها يوفر لها كل شيء وأمها تكسر لها أضلعها لتدرس. أما أنا فأعمامي يكسرون لي أضلعي لأني أحمل بين يدي كتابا. أصبحت الآن أكره الكتب بسببهم.

وأمقت حتى نفسي.لا خروج ،لا دخول و لا سفر.فقط الانزواء خلف أسوار البيت وأحيانا العمل بالبيوت، ذلك لكون دخل والدي الفلاح لا يكفي ليسد جوعنا.

قررنا الزواج رغم رفض كل العائلة، بسبب لون بشرته السوداء.لم أكن أرى في ذلك فرقا ،كنت دوما أدافع عنه إذا ما عيرت به.فأنا أراه بؤبؤ العين الأسود، الذي من دونه لن أبصر.أراه سواد الليل الذي من دونه لا ليل نسكن فيه و لا نور للقمر يستنار به...لست أدري هل حقا وقعت في الإعجاب به أم أن أناي هي ما تجعلني أخفي تلك العنصرية التي بداخل كل واحد منا، أو على الأقل في الوسط الذي كبرت فيه؟ يوجد فرق بين أبيض وأسود، بين جميل وقبيح، بين "بنت دارهم" وبائعة هوى، بين مولود ذكر وأنثى. فرق بين الغني والفقير.من يمتلك الدرهم يمتلك كل شيء.هذا ما أعلمه بالمجتمع،إنه شرط كاف أن يكون الإنسان غنيا ليصبح قبحه جمالا، وقلة عفته أدبا، وجهله علما.هذا الرجل ليس لأنه غني قبلت به فهو يعمل جنديا، هذا الزوج سيأخذني للبيضاء * ويسكنني بشقة لوحدي،ويسافر ليعمل ويشقى ليوفر لي كل ما أريده. هذا ما أخبرني به.وقبلت بابتسامة عريضة، والله وحده يعلم ما يدور ببالي.

تزوجنا، وفي ليلة دخلتنا لم أصدق أبدا أني معه بنفس الغرفة.هو والظلام متساويان.حتى بقلبي. لم أفهم ما اقترفته. كيف لم أفكر في هذه

* البيضاء: أو الدار البيضاء واحدة من كبريات المدن الاقتصادية بالمغرب.

اللحظة وفكرت فقط في أن أتخلص من قوقعة مجتمعي؟كيف جنيت على نفسي بالزواج من رجل لا أحبه؟ كيف؟

أحمد أول حب عرفه قلبي وأول رجل رق له فؤادي.كان يدرس البكالوريا وأنا أدرس بالثالثة إعدادي. كنا أشبه بالفئران ونحن نحب بعضنا. كنا أشبه بقطعة جبن لبعض.أحببته ولازلت أحبه وسأظل أحبه فهو حبيبي الأول و الأخير.لكن ما ذنب هذا الرجل لأخونه؟ لا أستطيع أن أكون معه بكل جوارحي، سأتخيل أنه أحمد، وأكمل المسرحية إلى آخر لحظة. فلأغمض عيني:"أحمد أصبح زوجي وسأكون دوما سعيدة معه"، كل هذا أقوله في صمت وأنا أغمض عيني...

أيام قليلة تلك التي بقيت فيها بميدلت لأسافر برفقة زوجي للدار البيضاء.

الحناء تخضب بنقشها يدي، ولون البياض بكسوتي يجعلني كالحمامة أراقص الحياة،من حين لحين كنت أنظر لزوجي و أسائل نفسي، ماذا يقول الناس وهم ينظرون لنا ؟ أ أنا ملكة وهذا واحد من عبيدي،أو أنه زوجي؟

-أنظري يا صديقتي كم هي جميلة، أكانت عمياء وهي ترتبط بأسود بشع مثله، لا يصلح إلا أن يكون واحدا من عبيدها.

-لعله غني، وغناه غطى على قبحه.

-لو كان غنيا لما وجدتها تتجول المدينة مشيا على الأقدام.

-غريب، لو كانت ابنتي لسجنتها بالبيت ولن أزوجها به.

-عندما يحضر القدر يعمى البصر يا عزيزتي.

هذه كلها أقوال قيلت عني، وأكثر ولكنه القدر وقد ساهمت في حدوثه بقبولي.فعلا "حين يحضر القدر يعمى البصر". عميت كليا.سأبقي أمام عيوني أحمد سأعيش على الذكرى وبالحلم.

يـوم أعلنـت خطبتي جـاء أحمـد ثمـلا، أمـام بيتنـا وبقـي يتفـوه بأشـياء جعلتني أدركهـا وحدي.سـنوات الحـب التي جمعتنـا لـن يطويهـا الـدهر، لكنـه يـوم حصـل على شـهادة البكالوريـا ثـم على وظيفـة اختفى،فلا هاتفـه يوصـلني لأحادثه و لا أصحابه يخبرونني عنه.لم تعد عودته مهمة بعد أن تمت خطبتي ،لكـن صـورته وخيالـه لـم يفارقـاني يومـا ،لسـت أدري مـن فينـا يحـب الآخـر أكثر ؟لقد تبدد كل شيء بالنسبة له.

لـم أرتـح بسـكني الجديـد معـه بين إخوتـه وزوجـاتهم. كان إخوتـه ينظـرون إلي نظـرة تكشـف عني حجـاب الملابس.كنـت أخشـى مـنهم كثيرا في غيـاب زوجي.أمـا زوجـاتهن فكـن يغـرن مني كثيرا، وكـن يجتهـدن في تفريقـي مـع زوجي. تبـدد حلـم السـكن لوحـدي بشـقة خاصـة.شيء واحـد جعلـه وفيّ لي ، إرسـالـه مبلغـا ماليـا كل شـهر، كنـت أرسـل أكثر من ثلثـه لعـائلتي ليسـدوا تلـك الأفـواه الجوعانـة ، والبقيـة أصرفهـا على حاجيـاتي. بعـد سـتة أشـهر مـن الغيـاب كان يرجـع ليعـانقني. كنـت كل مـرة أحـس أني أنسـى وجهـه وملامحـه وحتى ذلـك العطـر القـوي الـذي يضـعه.كنت أنـوي الخـروج من حفـرة أعـيش فيهـا، فـإذا بي أوقـع نفسـي في بئـر عميـق لا أحـد يسـمع نـدائي. حتى انطبـق علي المثـل القـائل:"من أراد كل شيء فقد كل شيء".

كنـت أزور عـائلتي عنـد رجوعـه مـن مدينـة "الـداخلـة"التي تقـع بصـحـراء المغرب الجنوبية،وبعـد ذلـك التـاريخ الـذي لا أتـذكره قررنـا معـا أن أبقى برفقـة العـائلة، ونشتري قطعـة أرضيـة بميـدلت، نبني بهـا بيتـا لنـا،على الأقـل العقـارات هنا ليست مرتفعة السعر كما في البيضاء.

وافقني واسـتحسـن الفكـرة، ففيهـا رحمـة لي من كيـد عـائلتـه.كان يغيـب عني طويلا فلا المال كان يسـد الفـراغ، ولا حضـوره مرتين بـالعـام كان يجعلني أشـعـر أني متزوجة.

في غيابـه ومـا أصعـب غيـاب الـزوج عـن زوجتـه. تعرفـت على مهنـدس، كان يمـر ببابنـا كل صبـاح لأجـل الإصلاحـات المرتبطـة بالبنيـة التحتيـة التي تعرفهـا المدينـة. كنـت بالبدايـة غير مكترثـة بـه و هـو أيضـا.غير أن ذلـك الصبـح كتـب

لعيوننا أن تلتقي صدفة أمام باب بيتنا.أي سحر فيها ! إنها تشبه عيون أحمد عسلية وعميقة.أعجبتني نظرته لي فبدأنا نتواعد بالعيون كل يوم على أعتاب الحب.حتى يوم قرر اللحاق بي، وأنا ذاهبة للدكان من أجل اقتناء بعض الحاجيات،بسرعة مررت له رقم هاتفي لكي لا يرانا أحد.

اتصل بي تلك الليلة وبث إعجابه الشديد بي. قال لي أنه يريد الارتباط بي إذا ما التقت أفكارنا وأهدافنا بالحياة. بقيت مندهشة، أولا يعلم أني متزوجة؟ لم أقل له شيئا بل سكنت دوامة من الصمت.أستمع لتلك الكلمات التي لا يتقنها كل الرجال حتى زوجي..استمرينا لمدة يسيرة في تلك المكالمات التي كنا نغرق فيها بعد أن ينام زوجي.وأضمن أنه لن يتصل مجددا . كان أول لقاء سري بيني وبين الفتى بعد شهر من تعارفنا.لم يحتج لوقت كبير ليميلني إليه،حينها فقط صرحت له أني متزوجة...فتوقف وابيض شعر رأسه من وطء الصدمة. ما قاله:

-كيف استطعت فعل هذا بي؟

لم أجب بشيء سوى البحث بين الكلمات عن ما أغطي به خجلي:

-كنت أعتقد أنك تعلم أني سيدة متزوجة.

قال والعرق يتصبب منه:

-أرجوك أخرجي و لا تعودي.

بالفعل خرجت من بيته وأنا أجر أذيال الخيبة و الصدمة والندم.بكيت كثيرا وأنا جالسة جلسة القرفصاء قرب المقابر، والدموع تغسلني وتكفنني وتستقبل المعزين.كيف استطعت فعل هذا به؟بنفسي وبزوجي؟كيف؟هل أخبره لتصح توبتي،أم أغسل خطيئتي بدموعي وأتوب كاتمة سري في صدري ؟

مرت شهور عدة، خلالها عاد الفتى وقال لي أنه وقع حتى العقب بحبي، وأن ما علي فعله هو طلب الطلاق من زوجي كي يتقدم لي.كان اقتراحه يطيب خاطري لأمدد من عمر علاقتنا.

رفعت دعوة الطلاق بعد وقت يسير، كنت أفتعل خلاله أتفه الأسباب كي أجد ذريعة لطلب الانفصال. بالنهاية، الوشاة خلصوني من هذه المشكلة.بعد أن أخبروا زوجي بدخولي المتكرر لمنزل رجل أعزب.هو لم يصدقهم ولم يرد أن يختبر صدقهم بالقدوم دون علمي والتجسس علي، هكذا أخبرني، بل قال لي أنه سيأخذني معه لمدينة عمله، الداخلة. لنكون قريبين من بعض، لكني يا زوجي آسفة، فقد تأخرت كثيرا.

حصلت على الطلاق.وانتهت أيام العدة ولازال طليقي يطالبني بالعودة إليه.يتودد و يتوسل بحق أيام العشرة أن أرجع إليه. هذا الرجل ظلمته. شردته.و الآن أخونه،وأخون نفسي معه.من الأفضل أن أتركه يبحث عمن هي أجدر مني به.حقيقة هو إنسان طيب يعاملني بالحسنى، وقد قابلت صدقه وحسن نيته بالشر والغدر. فليبارك الله حياته بعيدا عني، فهو طيب وأنا خبيثة. فأنا امرأة أصبح قدرها يسير نفسه من دون أن تتدخل فيه إلا لتقوده للهاوية.

حقيقة وضع المرأة المطلقة بالمجتمع صعب و مزري.ليس لها الحق في أي شيء.لعل ندر نفسها للخدمة أمثل شيء تقوم به حتى لو كان الأمر على حساب كرامتها.

الآن أنا امرأة تبيع الهوى بالطرقات، بعد أن غدر الفتى بأقواله ليغرقني في بحر أنا دونت بدايته بدموعي.استغربت يوم قدمني رجل من زبائني لصديقه، لقد كان صديقه هو أحمد نفسه الفتى الذي....تفاجأ بتواجدي بالمكان الراقي لمثيلاتي ممن ضيعن أنفسهن، فبقي شاخصا في،تساءل إذا ما كنت أنا نفسي هي أو لا؟ هكذا قالت عيونه. غير الزمان الكثير في و ما عاد بيدي العودة للوراء،رغم أني التقيت به من جديد، فلن أكون أكثر من بائعة هوى.

عاملات

كثيرا ما يأتينا الرحيل متأخرا حتى نعتاد على البقاء، فيصبح المنفى أنسب وطن للاستمرار، بعدما سلبنا شيئا يسيرا من الذكريات التي كانت قاسية، فيصبح منفانا والوطن سواء. الاغتراب هو نقطة التلاق، نحمله بدواخلنا بقينا أو عدنا.

حرارتي مرتفعة، لوزتي منتفختين تكادان تنفكان عن حدود جيدي، رأسي يؤلمني، جسدي يرتجف ومعه قلمي يرتعش رغبة بالبوح لهذا الليل الذي طويت فيه 26 كيلومترا أو أكثر، وصولا لوكر الحمام هذا الذي يحتويني منذ أسبوع غير مكتمل.

ظروف العمل الذي تجاوزت فيه الخمسة عشرة يوما منهكة ومتعبة، صعب جدا على فتاة مثلي و هن كثيرات، تحمل ظروف العمل المحيطة بدءا بالحرارة المتقلبة من مكان لآخر، وانتهاء عند تلك التي يكنونها "السيدة". عندما نراها كأننا رأينا خنزيرا بريا وعندما نسمع جعجعتها كأنه صوت حمار وحشي، لا يروضه إلا أسد أشد شراسة منه أو ضبع أكثر مكرا و دهاء.

عندما أدخل دائرة الشر تلك، أحسني ببحر لجي فيه الحوت الأكبر يلتهم الحوت الأصغر بتراتبية واضحة. الفتيات الجديدات العاملات كمتدربات يشتكين من سوء الوضع، ويعلن خفية استسلامهن، ورغبتهن بالتحرر من ذلك الزي الليموني، وحتى الأبيض لأنهما يتساويان و اللا إنسانية ونحن علمنا من خلال المقررات الدراسية أشياء كثيرة، متعلقة بحقوق الإنسان التي تخولها لنا خارطة الوطن والمنضمات الدولية، المندرجة تحت عنوان حقوق الإنسان. أصواتهن أبغض الأصوات عند الله يصممن آذانهن ادعاء أن ذلك جزء من العمل، وبند أساسي يجعلوننا كل صباح نعبئ به كما تشحن الآلات بالكهرباء، تبا لهم ولتلك التي أحضرت لي ورقة هذا المساء لأوقعها وهي تقول لي أن بعض الأسلاك التي أستعملها دون استعمال القفازات مسمومة

وتحتوي على نسبة عالية من الهلوجين، جعلتني أوقع وثيقة الموت و أنا أضحك ساخرة على الموقف، أما قصة الأمس ونحن نوقع عقود العمل المدونة باللغة الفرنسية فلم يكن مسموحا لنا بالاطلاع عليها حتى. فكرت أني قد أكون ورفيقاتي وقعنا على وثائق تنص بتنازلنا عن أجورنا، زيادة على العمل المجاني لصالح الشركة لمدة عامين، وفي حالة عدم إتمام شروط العقد، فبموجب المضامين حق علينا دفع كفالة مقابل نجاتنا من السجن. لست أدري حقا ما الذي ساقني لتلك المهزلة البشرية، التي تكتب وتعاد كل يوم على لوائح التاريخ بقلم جف مداده. إنه ظلم لا إنساني ذلك الذي تجسده تلك الشركات و المصانع والمعامل المتعددة الجنسية التي تشبه وحشا كاسرا أركانه تشمل كل أركان الكرة الأرضية.

حنان

إلى متى الانتظار؟ القطار يمضي وليس في جميع المحطات سيتريث.قد يمضي دون التفات لأخذي معه، فأبقى بمضيه كتلك الأشجار غير المثمرة المزروعة على قارعات طريق يمر بها القطار ويستظل بها الخلق فقط.أما إن عراها الخريف فتبقى مجدبة قاحلة تنتظر مضي الفصول.

لأول مرة أصادف فتاة تتبنى فلسفة الإحباط في الحياة. قالت لي أختي في ذلك المساء الممطر:

-لقد توقف المطر فل ترافقيني لنزور حنان؟

تساءلت :

-ومن تكون حنان؟

أجابت أمي مكان أختي لتعلن موافقتها بشكل ذكي:

-حنان فتاة طيبة هي جارة خالتك. اذهبي لتتعرفي عليها، شخصيتها متفردة أريدك أن تلتقي بها، اذهبي.

لم أغير شيئا من ملابسي ، كنت أرتدي بدله رياضية رمادية،ما أضفته هو المعطف وانصرفت مرافقة أختي. بعد عشر دقائق من المشي السريع وصلنا. طرقت أختي الباب منادية:

-حنان، حنان..

لتفتح حنان الباب، شابة في الثلاثين من العمر، جميلة ممتلئة الجسم، بيضاء البشرة. استقبلتنا بحفاوة وأجلستنا بغرفة الضيوف، كانت من حين لآخر تغادرنا لتعد وجبة الإفطار لوالدها الصائم، قالت عنه:

-فور إحالته على المعاش، وجلوسه بالبيت أصبح كالعجائز يكثر التعليق على أبسط الأمور.متى يأتي النصيب لأخلص من هذا الحمل.

عندما بدأت تحكي لأختي عن طبيب تعرفت عليه بعد الاتصال برقم خطأ، قالت أنه في عمره الأربعين و لا يريد أن يتزوج، أضافت أنها رددت على مسامعه جملتها الشهيرة:

-ماذا تريد؟ امرأة كاملة مكتملة جميلة؟ أنا هي. تريد طباخة؟ أنا أتقن فنون الطبخ، تريد امرأة تسكت كل رغباتك وتتقن لغة العطف والحنان؟ أنا هي...

من الوهلة الأولى أدركت أين يكمن خللها.تمنيت لو أني قوية أكثر لأقول لها إنها تحتاج لأسلوب كلام أكثر قوة و حضورا، تحتاج لكلمات ساحرات لتفتنه،وتفتن أي رجل.الرجل يرى في المرأة لغة السحر والفتنة من طرف عيونها، فليست كل جميلة فاتنة، ولا كل رزينة حكيمة ،الأمر بسيط ولابد أن يكون فطري. نظرت إلي و لأختي وقالت:

-والله يا أختي لو تعلمين كم من رجل طرق هذا الباب ورفضته كي أنتظر من اختاره قلبي، من كل المراكز و الأشكال و الألوان والبلدان والألسن...أختي الأصغر مني الآن أم لولد ذكر، وأنا ماذا بعد هذا العمر من الوفاء؟ لقد تزوج وتركني...

فقط الآن أسحب جملتي الأولى التي ذكرت عن اللباقة و الأدب ، ظننت أن كل الناس يهتمون لجمال وسلامة التفكير والعبارات، ولكن الحقيقة مختلفة. إن ثمن الوفاء غال جدا، ولا يدرك الإنسان قيمته إلا بعد مضي العمر.

لست أدري هل يبحث النساء عن حل يكون وسطيا فلا يتزوجن بالمرة و ينهين النسل البشري ونخلص، أو فلتعلم كل أم ابنها معنى أن يكون مخلصا و لا يهتم بالمظاهر و الشكليات.نحن من نعلم الرجال ألا يكونوا أوفياء ونعلم النساء كيف لا يكن تقيات، لأن كليهما من نفس واحدة وبداخل كل واحد منهما طفل نحن من ربيناه.

الرقص على الرمال

و ها أنت اليوم ترقص على قلبي رقصة الحية على الرمال، تنفلت مني انفلات الدهر من العمر، تشرق وتغيب كالشمس في فصل الصيف لتحرقني. عودتك عودة متجبر منتقم، يحمل السيف في غياب عن مرأى الناس، هل أنكر أني اشتقت إليك؟ و أني أرغب لو تطوي كل المسافات عابرا كل المحيطات والقارات، وأنت تمشي دون حذاء على نبتة الصبار وتحسبها أوراق ربيع، رطبة، متساقطة، متناثرة، على الأرض قبل الأوان مرتين. لنلتقي حيث اعتاد القمر أن يطل. وعندما يطل طيفينا نجري لهفة لنضم بعضنا.

تلك الذكريات الحلوة والمرة ترهقني وتتعبني، أحيانا أحاول أن أجعل منها مسكنا ينسيني قسوتك. فأجدها مرة كالعلقم تزيدني وجعا. أصبحت أشبه بمن دخل رحلة طويلة لا يتذكر منها قبل النوم إلا ألم الساقين ووجع الرأس.

رغم ذلك أعيد فعل البحث في حقيبة ذكرياتنا عن قرص مهدئ لهذا الصداع، وأفرح عندما أتذكر تلك الشجرة الكبيرة التي كنا نمر تحتها ممسكين بيدي بعض، فأوقفك لنحتمي معا من قسوة ما هو قادم.

سافرت اليوم سفرا طويلا لا أعتقد عودتك بعده. بهذا السخف أقنعت قلبي كي لا ينتظر أملا جديدا في تلاق قد يصنعه لنا القدر، لكني سأتجاهله وأمضي، لا أريد أن أقسوا على نفسي أكثر مما قاسيت و قسوت. بسببك فقدت حلم ارتداء البياض والمشي مختالة بين الرفيقات، لأني في ذلك الوهج كنت أراني عروسا، وأنت فارسي الذي يركب الفرس وينتظر قدومي لأرتمي بالبياض بين ذراعيه. فقدت حلم الأمومة عندما أجهضت مرتين، أصبحت اليوم كشجرة فارعة في السماء لا ثبات لها على الأرض. قد تأتي أية رياح لتقتلعها وتكون أول شجرة أعلنت الموت تحت الأقدام. بعض من أحبوا مثلي عانوا مثل هذا الوجع مرة أو مرتين، لكني أعانيه بالثانية آلاف المرات. أحيانا

عندما نحسب أننا سنربح كل شيء، يأتي القدر مستعجلا، ليفقدنا كل شيء حتى ما لم يكن بالحسبان، ليعلمنا درس ألا بقاء إلا لله.

توفيت أمي بعد ولادتي، مباشرة. لا أتذكر شيئا عنها، إلا ملامحها التي أتقاسم معها عبر الصور. حكت لي كثرا عنها جدتي وقالت لي أني أشبهها حتى في شهيقي وزفيري، إن أنا تعبت. كان لابد أن أرث من أمي كل شيء و لا أرث من والدي شيئا. لقاءاتي به معدودة على أطراف الأصابع. تزوج بخليلته بعد وفاة أمي مباشرة، ولم ينتظر أن ننزع لون السواد الذي أصبح رفيق أيامي.لكنه أمر عادي، في زماننا هذا حسب ما تحكيه جدتي لأمي.تقول بأن المسلسلات التركية والمكسيكية حرفت أخلاق الرجال والنساء، فأصبح كل رجل يطمح لأن تكون زوجته "نور"، وكل امرأة تطمح لأن يكون زوجها "مهندا". والحقيقة أنهم يملؤون قلوبهم بالفراغ. فالمرأة المثالية لا توجد بالأفلام والمسلسلات، ثم لا يمكن أن نطبق على حياتنا اليومية ثقافة تمثل شعوبا أخرى، فهذا سخف. التربية الصالحة نبات صالح مثمر. هذا ما ترددده دوما جدتي لأمي على مسامعي. ربتني أحسن تربية، لكني لم أكن كما أرادتني، نباتا صالحا مثمرا. وإن كنت ربيت تربية صالحة حسنة. ربما لم تعلمني أن بالدنيا ذئابا يرتدون لباس البشر ويتحدثون بلغتهم. ربما لأنها جعلتني أومن أن الدنيا لا تزال بخير. و في بصيص النور ذلك نسيت أن أبي تخلى عني، كي يرتبط بخليلته ولم يكترث بي يوما، حتى لو جمعت بيننا الأقدار في يوم مضى بعد مرور الثلاثين سنة لن يعرفني ولن أعرفه. هاجر برفقتها، وقرر ألا يعود. تفاجأت عندما وصلنا تابوته يحمل اسمه وعليه صورته، لم تكن مع التابوت زوجته ولا أبناؤه. فهمت بعدها أنهم تخلوا عنه. مرض طويلا ولم يمتلك العودة حفاظا على ماء الوجه. لم أكن لأتخلى عنه لو عاد لي.هذا ما تلقنته من دروس الغفران عن جدتي. لكن ذلك الآخر ليس والدي الذي منحني بمشيئة الله الحياة، فقد سلب مني الحياة وروحين حملتهما بأحشائي وحق الأمومة. لن أنصفه.بل سأمضي للا شيء معلنة الرغبة بأن تقتلعني الرياح. لكن الرياح لم تكن لتجري بين يدي المخطئين، ملكها الله تعالى لمن شاء من

عباده الصالحين، في غابر الزمان. أعلم أني أنا نفسي زوبعة من الوجع والألم، وأعلم أني سأنفث يوما في دواخلي وينتهي كل شيء.

فتاة الملجأ

ماذا أقول لليل الذي يريد أن ينام بحضني؟ وينسى بين ذراعي أحزانه؟ ماذا أقول لجرة الآلام تلك التي أحملها على كتفي وأمشي بها في توازن كي لا أكسرها وأفرغ كل ما يحمله قلبي على أرض قد تعبت من احتساء شراب الأحزان.لا أملك أجوبة على أسئلتي. سأملأ قلمي بالحبر وأشرع بتدوين تلك القصة التي جمعتنا نحن الاثنين، وكان القدر سيفا قاطعا سبق حكمه العدل.

يحزنني جدا أن نبتعد عن بعضنا، بعدما كنا نسكن نفس الجسد ونعيش بنفس القلب والروح، لم يكتف الزمان بحرماني من والدي الذين لم يكتب لي أن أضمهما قبل أن تختطفهما المنون، لست أدري أصلا أهما ميتان أم على قيد الحياة؟ لكن هذا ما يتردد على مسامعي من مديرة الملجأ. تلك المرأة المليئة بالقسوة والجفاء، تلك التي تقول أننا خطأ من أخطاء المجتمع، لا ضحايا من ضحاياه. تفسر كل شيء بمنطقها الخاص. رغم كل هذا الجفاء نحبها، وتفهمنا سبب قسوتها بعدما كبرنا، وتهنا بين دروب الحياة العقيمة. فهمنا أنه كان من واجبها أن تقسو علينا، كي نعتاد ضربات الزمن التي تنفذ لقلوبنا وتردينا أجسادا من دون روح.

الضياع هو ما حوكمت به بعدما ترك يدي وسافر على زورق يعكس لون السماء قاصدا اسبانيا. قدم ليودعني ولم أكن أعلم أنه كان يخطط للهروب مني، ومن قسوة الوطن. لو كنت أعلم أنه يضمر الهجرة لما قدمت لتوديعه، وتركه يبصم على جبيني قبلة الموت السوداء. تلك التي كان دوما يحدثني عنها. قبل أمه بالجبين وأخبرها عن قصتنا فحاكمته بالعصيان، إذا ما ارتبط بفتاة مثلي، شردتها الأيام مجهولة الأصل والنسب، بدون هوية أو ذاكرة أو ذكريات، سوى تلك المرتبطة بشقاوة الصبا واغتصاب حارس الملجأ.معها

حق، أخبرته بعدما سرد علي ترهات والدته تلك التي لا تفهم للحب معنى، يعميها الطمع والمظاهر الخداعة، حسب كلامه. لم ترحمني ونسيت أنها امرأة أيضا من لحم ودم، لكن عفوا لها قلب من قسوة الأيام، لعلها تشبه مديرة الملجأ وسأظل أحبها، لأنها أنجبت هذا الرجل الذي هاجر وتركني. لست أدري إذا ما كان على قيد الحياة أم أن أمواج البحار الغاضبة شردته، لكي لا يرجع لي؟ تعودت على الهجران و ما عاد يضنيني. الكل يراني خطأ جميلا، أحسن رب الخلائق تصوير شكلي. غير أن جمالي كان علي، لا لي، يفكر الرجال بجسدي وتكره النساء تواجدي بساحاتهن. لو لم يبعث لي الله هذا الرجل الفرنسي، صاحب الرغبات الطفولية لينقذني من أنياب هذا الزمن العجوز، لكنت الآن راقصة في ملهى أو خادمة بإحدى تلك البيوت التي يمتلك أصحابها المال، و لا يمتلكون الشفقة أو الرحمة.

"امرأة ...ربما هي في الخمسين"

لفت انتباهي شعرها الأبيض، وقسمات الدهر التي رسمت نفسها على خديها، لا يبد عليها كل ذلك الكبر الذي قد يبلغ الخمسين أو أكثر، عندما صرحت بصوتها الخشن الرجولي، لو كنت سمعتها عبر الهاتف لحسبتها عبد اللطيف أو أيمن أو حتى حسام، فخشونته ليست خشونة حادة و لا نعومة صوت أنثى، جلست قربي وأنا بمقهى محطة الحافلات بمدينة القنيطرة *، نظرت إليها وهي تجلس دون استئذان، فبادرت بابتسامة، لتقدم لي تحية مليئة بالألم الذي يجعلها لا ترى سوى تلك الهموم التي تحيط بها من كل جانب، أشباحا تلاحقها رغم محاولة هروبها المحبط بالفشل منها، طلبت من النادل أن يحضر لي كوب قهوة وقارورة ماء، وقلت له أن يسألها ما تريده، فهي ضيفتي،هكذا أحسست. أحسست منه مسبقا أنه يرغب بطردها، لكني جعلته يحس أنها برفقتي، فكان لتواصلنا لغة الصمت وهي كما علمت وعلمت أوضح، نظرت إلي وأخبرتها بعيوني أن نعم، لك ما تريدين، كل ما طلبته علبتي حليب مبستر. استغربت طلبها لكني استطعت أن أفهم أنها لا تريدها لنفسها بل لشخص آخر، فقررت أن ألغي طلبي وأطلب إبريق شاي وكأسين، هكذا نحن المغاربة، من نحبهم نتقاسم معهم شرب الشاي من نفس المنبع. سألتني من دون مقدمات:

-الظاهر أنك لست من القنيطرة، ملامحك تشي بذلك؟

أجبتها و الابتسامة تعلو محياي.

-نعم أنا لست من القنيطرة، لكني منذ أعوام أشتغل بها.

سألت من جديد:

* القنيطرة:مدينة مغربية تقع بالجهة الغربية،مطلة على المحيط الأطلسي.

-كتب لك القدوم والعمل هنا، سبحان الله، أنا من مدينة الخميسات*، تزوجت وجئت برفقة زوجي هنا.

أضافت:

-زواجي دام لأكثر من 25 عاما، و فجأة كل شيء انتهى.هل أنت متزوجة؟

استغربت جرأتها المرتبطة بالنبش بخصوصيات حياتي، واستغربت بساطتها في كشف كل أسرار حياتها، وهي تعلم أني غريبة عنها وحتى عن المدينة، لا بأس سأجيبها:

-نعم أنا متزوجة وأم لولدين بثينة وعثمان، ابنتي تدرس بكلية الطب ستتخرج بعد عامين، وابني أستاذ، وهو متزوج وأب لطفلة بعمر الزهور، اسمها على اسمي نور الهدى.

بقيت تستمع لي بحزن عميق، كنت أعلم أن هنالك ما تخفيه، كنت مستعدة لأسألها من جديد لكنها دوما تسبقني لذلك:

-ما شاء الله أنت محظوظة، لكن لم أحسب أن من مثلك يستقل الحافلة و لا يمتلك سيارة خاصة به. أحسب أن مثلك ممن ولدوا وبأفواههم ملعقة من ذهب، لهم سائق خاص، وهواتفهم لا تتوقف عن استقبال المكالمات. لكن أنت تجلسين مع من مثلي، وتتكلمين ببساطة، وتبتسمين وتنتظرين الحافلة.

نظرت إليها بتمعن، ووجدتني ملزمة بأن أخبرها بما أخفيه عن البقية، في الحقيقة أنا كنت مثلها، فقدت أبوي بسن مبكرة، وجدتي من تكفلت بي، لم أكن أحسني حفيدة لها، بل خادمة تنظف وتطهو وتعجن وتسمع وتلبي دون أن تتحدث، وتراجع دروسها على ضوء الشمع وعند انبلاج الفجر، معلنا الفاصل بين الخيطين الأبيض و الأسود. لا تعلم كل ذلك، لا تعلم أنه بعد حصولي بتفوق على شهادة البكالوريا، شعبة الرياضيات لم أجد أحدا بالبيت

* الخميسات:مدينة مغربية تقع بالغرب.

وأنا عائدة، فالكل غادروا. الله وحده يعلم أين؟ سمعت أن أحدهم قد قام بدعوتهم لحفل غداء مع وجوب غيابي، كنت أعلم أن الأمر مرتبط بخطبة و زواج. وما شأني أنا؟ ذهبت حينها والدمع يبلل خدي عاكسا فرحي وحزني، ذهبت إلى حيث قبري والدي، ضممتهما ونمت بينهما، و الشهادة أحملها بين يدي، لا أدري كيف فعلت، لأضم الكل وأنام، نمت والدمع يملأ العين وما بالقلب لا يعلمه إلا علام الغيوب. رأيت بحلمي والدي على رأس جبل، ينتظراني، جريت بكل ما أحمله من طفولة بداخلي نحوهما، وسرب الحمام يرفعني عن الأرض، معلنا لي قدرة على المشي فوق السحاب، ككرامات الأولياء، لم أكن لذلك الحد صالحة، لتكون لي كرامة الأولياء، نعم لا أستطيع أن أكره جدتي، ولا أملك إلا أن أحبها،على الأقل عاملتني كخادمة مقابل الدراسة وقطعة فراش أنام عليها، وكسرة خبز أتغذى عليها. على الأقل راعت قرابة الدم التي تجمع بيننا، كان الحلم رغم كل شيء بردا وسلاما على قلبي، ليخفف من حرقة تلك النار التي تلهبني، بعدما استفقت من جنة حلمي، قبلت الثرى الذي على القبرين ورحلت، رحلت ولم أكن أعلم أن رحيلي كاد أن يكون أبديا، لولا رحمة الله تعالى باليتيم.

كنت سبب الدعوة، أحدهم يريد الزواج بي، لم أكن أحس أن جدتي تريد تزويجي رغبة في الاطمئنان علي، فكل ما فعلوه هو بيعي لرجل مسن يبلغ من العمر الثامنة والستين، ما الفرق؟ فعندما يغلق الضوء يتساوى الرجال، لكن لست أدري لماذا لا تتساوى النساء؟ كان حريا به أن يرتبط بمن تقاربه عمرا، لا من هي فتاة في شتائها السابعة عشرة. زوجته مريضة وقد أعطته موافقتها على الارتباط، فهي غير قادرة على استيفاء كل حقوق الزوج، بل هي من اقترحتني عليه. نعم كنت أذهب لبيتهم لأشتغل صباحا بتنظيف منزلها مقابل بعض الدراهم، كي أقتني لوازم الدراسة،التي لن و لم يفكر أحد باقتنائها لي إلا شفقة بعد بكاء واعتكاف طويل بالظلام. لم أكن أعلم أني على يديها كنت أدرس لأتخرج وألتحق بالعمل كزوجة لزوجها، هكذا أحسست لأنه لم تتم مشورتي بشيء. هكذا عقد قراني، أخذوا من أصابعي بصمات وكأني لا أعرف كيف يرسمون رسما يحمل شيئا عن هويتي ورغبتي بهذا

الزواج، كانت البصمة غصبا وكرها، لكنهم وعدوني بأن يتم إلحاقي بكلية المهندسين إن أنا وافقت، هكذا استطاعوا إقناعي، لو لم تكن المقايضة علما لما كنت لأبصم حتى. علمت أن الكثير من الفتيات عقد قرانهن وهن يلعبن بالدمى الخشبية. هكذا يعقدون قطعتي قصب عموديتين بالخيط، ويضعون على أحد رؤوسها شيئا من شعر الماعز، ويلبسونها قطعة ثوب وحزاما، وينادونها ابنتي: " نامت ابنتي، استيقظت ابنتي، ابنتي مشاغبة، ابنتي جميلة، سأزوج ابنتي..."و يتم تزويجهن قولا من أمهاتهن أن الزواج لعبة كتلك التي يلعبنها، مع شرط فعل النجاح. والنجاح هنا يعادل عدم الرجوع من بيت الزوجية حتى على حساب موتهن، فللمرأة ثلاث خرجات، فالأولى عند الولادة والثانية عند الزواج والأخيرة بعد الممات.

و بعد الخروج من أجل الزواج لابد ألا يكون هنالك خروج للطلاق، هذا ما كبرنا ونحن نراه ونسمعه ونعيشه، بعدها نصبح بطلاته أو ضحاياه، فكثيرا ما يكون أبطال القصص ضحايا. بل هذا ما يجعلهم أو يجعلهن أبطالا أو بطلات، لست أدري هذا ما قرأته أو شاهدته في مكان وزمان ما.

هكذا وجدتني بعد بضع سنين أما، وبعد أخر أرملة، وكان لابد أن اشتغل. من حسن حظي أن شهادتي ساعدتني في الحصول على عمل بالقطاع العام، فالسبعينات كانت أرحم من الوضع الهش الذي نعيشه الآن. أقصد اقتصاديا، وفي ما يتعلق بمجال التوظيف والتعليم....لم أحك لها شيئا عن ذلك الحداد الطويل الذي عشته بعد زواجي برجل يكبرني بأعمار، تفكيره غير تفكيري، ومذهبه بالحياة عكس تيار مذهبي، لكنه كان قدرا خط على الجبين و كان لابد أن تراه العين. كنت أتساءل ولازلت، لماذا قد ترتبط المرأة برجل يكبرها سنا؟ فسمعت أنها حاجة لتعويض مكانة الأب، بحنانه وعطفه ولطفه، وأما الرجل الذي يتزوج بمن هي تضاعف عمره فهو بحث عن سد فراغ تركته الأم، وقد تعوضه المرأة، فتكون له الأهل والسكن و الأمان و الاستقرار.

ليت الناس كانوا فعلا يرتبطون من أجل ضمان راحة البال. اليوم تغير كل شيء حسب ما تحكيه جدتي واليوم تجربتي ، بهذه النقاط أحاول أن أوازن حياتي فقط. لم أخبرها عن معانات الترمل بعده، وعن كيد انقلاب الأيام، أخبرتها بالقليل من الأشياء، كي لا تفقد الأمل بالحياة...لم تكن هي الأخرى لتصمت بل حدثتني كثيرا، عن ارتباطها برجل اختاره قلبها، عاشت معه أجمل أيام العمر، لكن ما غيره وغير حالها وجعلها تفكر في علبتي الحليب المبستر؟ لم أستطع أن أدرك أسبابه فقد جاءت الحافلة التي ستقلني لمدينة الحسيمة *،....لأترك لها رقم هاتفي، متى احتاجتني لها أن تتصل بي.

أحس أني قطعة بلوحة شطرنج من الممكن أن تنفى خارج اللعبة بأي وقت، ولكن إن كنت بالفعل كذلك فأفضل أن أخرج من الرقعة بالجولة الأولى....لأني إن بقيت سأدمر كل شيء وأفوز، والفوز الذي بعد الدمار لا أعتبره فوزا. بل هو قمة الجبن.

تمت

* الحسيمة: مدينة مغربية تقع بالشمال مطلة على البحر الأبيض المتوسط.

فهرس الموضوعات

بيدقة المواسم 5
رجل ملتحي 17
القبلة الأخيرة 22
فاطمة 32
البيدقة الأولى 33
البيدقة الثانية 34
البيدقة الثالثة 36
البيدقة الرابعة 38
البيدقة الخامسة 40
البيدقة السادسة 42
البيدقة السابعة 44
البيدقة الثامنة 46
البيدقة التاسعة 48
البيدقة العاشرة 50
البيدقة الحادية عشرة 52
البيدقة الثانية عشرة 54
البيدقة الثالثة عشرة 56
البيدقة الرابعة عشرة 58
البيدقة الخامسة عشرة 60
عدت بخفي حنين 61
وعود رجل 63
زواج تقليدي 65
عاملات 71

حنان 73
الرقص على الرمال 75
فتاة الملجأ 78
"امرأة ...ربما هي في الخمسين" 80